

سلسلة ذخائر التراث (الفقه) (المغربي) (41)

رسائل ابن عتيبة الكاتب

د. محمد مجيد السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن عطية الكاتب حياته ورسائله

الدكتور محمد مجيد السعيد

حياته:

هو أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي المراكشي (1)، مع اختلاف في اسم أبيه وجده حيث ورد في الإحاطة "أحمد بن أبي جعفر بن محمد" (2)، وفي الحلة السيرة "أحمد بن جعفر بن عطية" (3) بإسقاط اسم جده (محمد)، ولد في مراكش سنة 517هـ (4)، وأصله القديم من قمرلة قرية بطرطوشة، ثم بعد من دانية (5)، ونسبه في قضاة (6)، نشأ في كنف أبيه الكاتب الذي اشتغل في خدمة علي بن يوسف وابنه تاشفين (7)، وتعلم على يده، وعُدَّ من شيوخه وكذلك أخذ عن طائفة كبيرة من أهل مراكش (8)، ولكن المصادر أغفلت ذكر أولئك العلماء الذين أخذ عنهم ابن عطية، ولكننا

يمكن أن نتصور حجم المعرفة التي بإمكان الإنسان الراغب في العلم والمعرفة الحصول عليها إذا ترعرع في مدينة زاهرة كمراكش أواخر أيام المرابطين، حيث كانت تعد آنذاك منارة من منارات العلم في العالم الإسلامي ومحطة جذب واستقطاب للعلماء والأدباء والشعراء والمفكرين، وعلى كل حال فإن أحمد بن عطية نبغ في الكتابة والإنشاء منذ فترة مبكرة أهله لنيل حظوة كبيرة لدى خلفاء المرابطين، فكتب عن علي بن يوسف بن تاشفين (ت 537هـ) وعن ابنه تاشفين (ت 539هـ) ثم عن ابنه أبي إسحاق إبراهيم (9)، وقد أغفل ابن خلدون وتابعه في ذلك السلاوي الإشارة إلى قيام المترجم له بالكتابة لعلي بن يوسف وابنه تاشفين، ولكنهما أشارا إلى أن والد المترجم له هو الذي كان يكتب لهما (10)، أما أحمد بن عطية فإنه تفرّد للكتابة لأبي إسحاق إبراهيم (11) ولازمه حينما وجهه والده تاشفين إلى مراكش خوفاً عليها من السقوط بأيدي الموحدين (12). ولكننا لا نستبعد أن يكلف أحمد بن عطية الكتابة مع والده لدى بلاط علي بن يوسف ثم لدى ابنه تاشفين، ومن بعد ذلك ملازمة ولي العهد أبي إسحاق إبراهيم الذي كان صغير السن لم يتجاوز

الثالثة عشرة من عمره حينما تولى مسؤولية الدفاع عن مراکش، فهو إذن بحاجة إلى من يقف إلى جانبه ويؤازره ويستشيريه من الكتاب ذوي الخبرة والرصانة والحلم .. ولهذا فإننا نرجح أن يكون المترجم له قد تولى الكتابة أولاً في بلاط الخليفة علي وابنه تاشفين (وهو في عمر يناهز العشرين) لينال لديهما الحظوة والمكانة والثقة التي ترشحه ليشغل منصب الأمين والمساعد والمرافق لولي العهد أبي إسحاق إبراهيم.

وعندما أفلت دولة اللمتونيين بمقتل آخر ملوكها أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي في منتصف شوال من سنة 541هـ (13) وغدت مقاليد الحكم الموحدية ترفرف على خارطة الأندلس وشمال إفريقيا ... هجر أحمد بن عطية مهنة الكتابة الرسمية مبتعداً عن بلاطات الخلفاء وكبار القوم، وانزوى بعيداً ودخل في غمار الناس (14) "وقد أخفى نفسه في رماة العسكر وتكر جهده وهو المعروف غير المنكر" (15)، ولكن الظروف كانت ترسم له قدره، وتأبى أن يعيش كما يهوى فكشفت عن جوهره وأزالت غبار الغمر عنه حينما انتصر جيش الموحيدين على محمد بن عبد الله بن هود الماسي الثائر

برباط ماسة، يوم الخميس السادس عشر من شهر ذي الحجة سنة 541هـ،

فطلب قائد الجيش "الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى كاتباً يكتب عنه بهذا
الفتح إلى عبد المؤمن إذ لم يكن عنده كاتب، فعُرف بابن عطية، فأمر بحضوره
فحضر وكتب عنه فأجاد وأتقن ما أراد، فقربه أبو حفص وأحسن إليه في
جملته. (16)"، وفي الإحاطة ذكر أن أبا حفص حينما استحضره وعرض
عليه غرضه "تجاهل ابن عطية وظاهر بالعجز فلم يقبل - أي أبو حفص -
عذره واشتد عليه، فكتب رسالة فائقة مشهورة، فلما فرغ منها وقرأها عليه
اشتد إعجابه بها وأحسن إليه" (17)، وهكذا كانت هذه الرسالة مدخلاً
وسبباً إلى بلاط خلفاء الموحدين، وكانت سبباً في تبوئه المجد والشهرة
والمكانة، فقد ذكر ابن عذارى أن الرسالة بعد وصولها إلى الخليفة "قرئت في
مجلسه فاستغربها الحاضرون من الطلبة والفقهاء والكتاب والنبهاء
والشعراء، واستحسنها الخليفة لما فيها من وصف الحال بغاية الإبداع وأنها
أخذت من الفصاحة والبلاغة والتشبيه الغريب بالقلوب والأسماع، وأجمع
البلغاء على إبداعها غاية الإبداع، فكانت سبباً لسعده ورفعة قدره وجده،

فاستكتبه عبد المؤمن إثر ذلك ثم علا قدره وذكره" (18)، وبعدما استُحضر
"قلّده عبد المؤمن خطّة الكتابة، وأسند إليه وزارته وفوّض إليه النظر في أموره
كلها فنهض بأعباء ما فوض إليه، وظهر فيه استقلاله وغناؤه" (19)، وإذا
كانت براعته قد سودته وعظمت مكانته فإن ذلك كله يعود إلى رعاية البيت
الموحدي له واهتمامه بصناعته وقدراته ومواهبه، ولذلك فإن ابن الأبار يجعله
"صنيعة الإيالة الحفصية - يعني أبا حفص عمر بن يحيى جد الحفصيين
وأوائل أنصار ابن تومرت - ونشأة عنايتها الكريمة وهدايتها العتيقة، بها بهر
بهاؤه، واشتهر ابتداءؤه وانتهاءؤه حتى ساق الأيام بل الأنام بعصاه واستوسق له
أدنى الشرف وأقصاه" (20)، وهو في الحقيقة يعتبر أول وزير في دولة
الموحدين، والدولة كما نعرف لا تزال فتية ناشئة لم تستكمل قواعدها، ولم
تُرس أسسها وتقاليدها، وبذلك غدا الميدان رحباً فسيحاً أمام المترجم له
ليصول ويجول "فكان وزير حكمها بلا منازع كما كان مستشارها في تسيير
أمر المدينة وتحريك دواليبها الإدارية" (21)، كما يعدّ أول من جمع بين
الوزارة والكتابة في عهدهم (22).

ولم يدفعه موقعه هذا إلى التكبر والتعالي والانحجاب عن الناس، بل سخر
وظيفته وقربه من الخلافة لخدمة الناس وقضاء مصالحهم وفكّ ضوائقهم،
"فاشتهر بأجمل السعي للناس واستمالتهم بالإحسان وعمّت صنایعه وفشا
معروفه، فكان محمود السيرة، منجّاب المحاولات، ناجح المساعي، سعيد
المأخذ، ميسر المآرب، وكانت وزارته زينة للوقت، كملاً للدولة" (23)، فسجلت
له مواقف عديدة في نصرة المظلومين، والتوسط لهم في حلّ مشاكلهم، من
ذلك إسعافه لأبي القاسم أخيل بن إدريس ووقوفه إلى جانبه عندما اتصل به
بعد إطلاق سراحه من قبل المتغلب على رندة أبي الغمر بن عزون، وكتب له
عن الأمر العلي إلى أبي الغمر برندة بصرف ماله والحفاوة بأهله وقضاء
حوائجه وآماله، وظل في طبقته مقدماً مكرماً حتى ولي قضاء قرطبة ثم
قضاء إشبيلية (24)، وكان له موقف إنساني آخر مع أبي عبد الملك مروان بن
عبد الله بن مروان بن عبد العزيز الشاعر، حيث بذل جهداً شخصياً في
تخليصه من معتقله، فقد ذكر ابن الأبار وهو يتحدث عن ابن عبد العزيز ما
نصّه: "... وعند إشخاصه - أي مروان بن عبد العزيز - مقبوضاً عليه إلى

ميورقة سجن في بيت مظلم مُطَبَّق، كان لا يعرف النهار فيه من الليل، وتُرك أوقاتاً دون غذاء ولا ماء، وأقام مسجوناً نحواً من عشرة أعوام وقيل اثني عشر عاماً... ثم إنه تخلص من معتقله بسعي أبي جعفر بن عطية الوزير في ذلك، حتى خوطب إسحاق بن محمد بن علي بتسريحه، وقد وُلِّي ميورقة بعد قتل أبيه محمد وأخيه عبدالله في سنة ست، بل سبع وأربعين وخمسمائة، وجنح إلى الموحدين أعزهم الله فامتثل إسحاق ذلك ووجه به إلى بجايه ومنها توجه إلى مراكش، فسعى له ابن عطية في حضور المجلس السلطاني" (25)، ولكن هذا الموقف الإنساني النبيل لم يقابل بمثله بل تحول أبو عبد الملك مروان إلى عدو لدود

لابن عطية، ونظم فيه شعراً يوغر فيه صدر الخليفة ضده، كما سنرى. ومن في مكانة ابن عطية ومنزلته لا بد أن يتحلق حوله الشعراء والأدباء تزلفاً وتقرباً واستفادة. ولكن المصادر التي تعرضت لسيرته لم تتناول هذا الجانب أو تتعرض له بشيء من التفصيل وإنما أوردت لمحات قليلة خاطفة، لا

تعبر — حسب اعتقادنا — عن الواقع، ومن تلك اللمحات ما ذكر من ملازمة

الكاتب أبي بكر محمد بن نصر الأوسي له وهو القائل فيه يمدحه:

أبا جعفر نلت الذي نال جعفر عليك لنا فضل وبرٍّ وأنعم

ولا زلت بالعليا تسرّ وتُخبر ونحن علينا كل مدح يُحبر (26)

ويبدو أن هذين البيتين قد ولّدا الكآبة والحزن والشؤم في نفس ابن

عطية، لأنهما يشيران إلى نهاية جعفر بن يحيى، التي هي القتل والصلب،

فكأن أبا جعفر أحسّ بأن مصيره لن يكون غير ذلك (27).

ومن مدّاحيه شاعر الخلافة ابن حبوس (28)، فقد قال فيه قصيدة منها

هذه الأبيات:

أتحسدني في أن أعيش كأنما أما تتقي أن يشرئب لنصرتي

وماذا الذي ينأى عليه وإنه وزير العلى عندي من القول فضلة

وما كنت أخشى مدة الدهر أن أرى إذا فسدت حالي ستصلح حالها

قوي إذا رام السماء ينالها لذو قدم أمّ النجوم نعالها

رويتها في مدحك وارتجالها تميد بي الدنيا وأنتم جبالها(29)

ولم يتوفر لنا غير هذين النصين في مديحه، وهما — كما قلنا — لا

يتناسبان والمكانة التي كان يشغلها المترجم له، ولعلي أرجع سبب اختفاء

نصوص مدحيه أخرى قيلت فيه إلى النهاية الحزينة المؤلمة التي اختتمت بها حياته.

على كل حال فإن ابن عطية لم يتحدد دوره في عهد الموحيدين بوظيفة

الكتابة والوزارة بل كلف بمهمات أخرى كبيرة وخطيرة، فقد شارك في فتح

بجاية سنة 547هـ(30)، وبخطه وأسلوبه وصف فتحها برسالة "أبداع فيها

غاية الإبداع، وفي شرح هذا الفتح أبهج القلوب والأسماع، وبعث بها إلى سائر

الأصقاع"(31).

كما أشرف على القضاء على فتنة أخوي المهدي بن تومرت حينما ثارا في

فاس ودخلا مراکش فقتلا عاملها عمر بن تفراكين، ولقد أبلى ابن عطية

آنذاك بلاء حسناً حتى تمكن من إخماد الثورة وتكبييل زعيمها .. ومهد الأمور

بعد ذلك لوصول الخليفة الموحيدي إلى مراکش(32).

وكانت له مشاركات بارزات، ودور فاعل وخطير في الحملات التي قام بها جيش الموحدين في الأندلس، فعلى يديه تم فتح المرية واستتزال النصارى المتحصنين فيها بالأمان صلحاً على العهد، بحسن محاولته (33)، بعد أن حوصرت لفترة طويلة من قبل الشيخ أبي حفص، ثم بعد ذلك، وبأمر من الخليفة عبد المؤمن لازم أبا يعقوب بن عبد المؤمن بعد تقديمه على إشبيلية، فتوجه معه — بعد انتهاء فتنة المرية — نحو إشبيلية لمنازلة الثائر بها علي الوهبي بداية عام 552هـ (34)، وحينما توجه أبو سعيد بن عبد المؤمن لمنازلة النصارى في غرناطة وجه إليه الخليفة عبد المؤمن "الكبير أبا جعفر بن عطية صحبة السيد أبي يعقوب ابنه، فلحق به واتصل الحصار شهوراً سبعة، وبُذل الأمن لمن كان بها وعادت إلى ملكة الإسلام، وانصرف الوزير أبو جعفر صحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية" (35).

وهكذا نجد أن دور ابن عطية السياسي قد توسع، فغدا يشارك في الأعمال الحربية والعسكرية مشاركة فاعلة ومؤثرة، فكان مقدماً وذا مكانة يحسب حسابها، فيصفه ابن الخطيب، في النص السابق، بلقب "الكبير"، وفي

حصار المرية يكون المفاوض باسم الدولة لحل الصعوبات العويصة مع المتحصنين من النصارى.

ولكن لم تستمر هذه المكانة وتلك المنزلة، فقد عدا عليه الدهر وقلب له ظهر المجن، وبدلت الأقدار سعادته شقاء، ورخاءه محنة ونكداً، "فطولب عند الخليفة عبدالمؤمن فأمضى عليه حكم ما رآه من الرأي في سلطانه، بحيث لم يجب استغاثته إلا عواء الذئب، أو صدى تتسعر عليه نار الاكتئاب، فرويت الأرض من دمه" (36)، ومن متابعة المصادر التي تعرضت لنهاية ابن عطية يقف القارئ على جملة أسباب قد تكون أو يكون بعضها دافعاً لتبدل الخليفة وتغيره على وزيره وكاتبه، ومعاقبته بمثل تلك القسوة التي عوقب بها. وتلك العوامل والأسباب التي دفعت إلى نكبة ابن عطية هي:

1- إفشاؤه سراً أفضى إليه به الخليفة (37)، وكان ذلك السر يتعلق

بحياة يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن الصحراوية وهو أخو زوجته. مما أغضب الخليفة فأمر بتقييد يحيى وسجنه إلى أن مات، وأمر بقتل الثاني على الطريقة التي سنتعرض لها.

2- تقريبه للمرابطين، وتعاطفه معهم، واتهامه باصطناع العدد الكثير

منهم وانتشالهم من خمولهم (38). ولم يكتف بذلك بل تزوج ابنة أحد

زعمائهم، فقد ذكر المراكشي في المعجب أن ابن عطية كانت عنده بنت أبي

بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية، وهي أخت يحيى بن

أبي بكر فارس المرابطين المشهور عندهم والمعروف ببلائه ومقاومته لحركة

الموحدين في تلمسان وفي فاس وغيرهما (39).

3- كثرة الوشاة والحساد، فقد مرّ بنا ما وصل إليه ابن عطية من مكانة

لدى الخليفة ومن سلطات واسعة لا حدود لها تجمع بين الكتابة والوزارة، ومن

يكون بهذه المنزلة لا يخلو من الحساد والمغرضين والطامعين، ولقد خلا الجو

لأولئك الأعداء عندما توجه ابن عطية إلى الأندلس في مهمة رسمية دامت

شهوراً، "فوجدوا السبيل إلى التدبير عليه، والسعي به، حتى أوغروا صدر

الخليفة، فاستوزر عبد المؤمن بن عبد السلام بن محمد الكومي، وانبرى - أي

عبد السلام- لمطالبة ابن عطية، وجدّ في التماس عوراته، وتشنيع سقطاته

وأغرى به صنایعه، وشحن عليه حاشيته، فبروا وراشوا وانقلبوا" (40)، ومما

زاد في الطين بلة أبيات نظمها مروان بن عبدالعزيز "طليق ابن عطية،

ومسترق اصطناعه" (41) كما يقول عنه ابن الخطيب، وهو ممن أحسن إليهم

ابن عطية وخلصه من سجنه في ميورقة، وكان هذا الشعر الذي نظمه فيه

وألقاه في مجلس الخليفة يحرض فيه على قتله والإيقاع به (42) من أقوى

أسباب نكبته، ومن أهم دوافع قتله وفنائه (43)، وهذه الأبيات هي (44):

قل للإمام أدام الله مدته إن الزراجين قوم قد وترتهم

وللوزير إلى آرائهم ميل فبادر الحزم في إطفاء نورهم

الله يعلم أنني ناصح لكم هم العدو ومن والاهم كهم

قولاً تبين لذي لب حقائقه وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه

لذاك ما كثرت فيهم علائقه فربما عاق عن أمر عوائقه

والحق أبلغ لا تخفى طرائقه فاحذر عدوك واحذر من يصادقه

وفي الأبيات تأكيد لما كان يتهم به ابن عطية من ميل إلى اللمتونيين

وتعاطف معهم.

هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة دفعت الأمور لغير صالحه، وأوغرت

صدر الخليفة عليه، وأثارت غضبه، فتغير حبه كرهاً، ورفعته انحطاطاً

وسفلى.

"فحجب عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد ... حاسر العمامة" (45)، ثم

سجن هو وأخوه أبو عقيل عطية، وبعد معاناة وعذابات مريرات نفذ الأمر

بقتلها، "فأخرجوا من سجنهما وحملوا إلى جبل (درن) وقتلا بموضع تاجموت

قرب الملاحه، وذلك في التاسع والعشرين لصفر من سنة ثلاث وخمسين

وخمسائة" (46)، وهكذا انتهت حياة هذا الكاتب الأديب الوزير نهاية مؤلمة

قاسية، وإذا كنا نتلمس أسباب قتله فإنه يصعب معرفة دوافع قتل أخيه عطية

سوى رابطة الأخوة التي تجمع بين الاثنين. وفي فترة الاعتقال صدرت عن ابن

عطية لطايف الأدب من

نظم ونثر، ولكن سيف القدر أمضى فلم تتجح ولم تدفع، ومن تلك

المأثورات التي نفثت عنه أيام محنته أبيات نونية يقول في بعضها :

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج

من جاء عندكم يسعى على ثقة أنتم بذلتكم حياة الخلق كلهم

ونحن من بعض من أحيت مكارمكم وصبية كفرأخ الورق من صغر

قد أوجدتهم أياد منك سابغة بان العزاء لفرط البث والحرز (47)

وعطفة منكم أنجى لي من السفن بنصره لم يخف بطشاً من الزمن

من دون من عليهم لا ولا ثمن تلك الحياتين من نفس ومن بدن

لم يألّفوا النوح في فرع ولا فنن والكلّ لولاك لم يوجد ولم يكن

وفي النثر كتب رسالته الرقيقة المؤثرة في الاستعطاف، التي حذا فيها

حذو ابن زيدون في رسالته الجدّية، وسلك مسلكه، وقد كتبها عندما

اصطحبهما أمير المؤمنين - هو وأخوه- مكبلين في حال ثقاف لزيارة قبر

المهدي بن تومرت، وفيها يقول: "تالله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك

نفسى عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن فى الوجود، وأنفت لأدم من
السجود، وقلت إن الله تعالى لم يوح فى الفلك لنوح، وبريت لقرار ثمود نبلا،
وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا ... ثم أتيت حضة المعلوم لائذا، وبقبر الإمام
المهدي عائدا، لقد آن لمقالتى أن تسمع، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع
أنى مقترف وبالذنب معترف" (48).

وهذه الرسالة على ما فيها من توسل، ومن مغالاة ومن ترج وتذلل لم ترقق
قلب أمير المؤمنين ولم تخفف من العقاب، فكانت صرخة فى واد، وصوتاً
محشرجاً لم يجد أذنأ تصغي ولا قلباً يعي، فلم ينل أمنيته ولم يحقق غايته.
وبعد مقتله قيل إن عبد المؤمن ندم على قتله وبكى عليه بالدموع (49)،
وقال متحسراً: "ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه" (50).

هذه هي حياة ابن عطية، بل هذه صفحات موجزة مما سجلته كتب التراث
عن هذا الأديب الناثر، وهي فى الحق تمثل صفحة من حياة دولة الموحدين
السياسية وما كانت تعج به قصورهم من حسد وفتن وما تحاك بها من
مؤامرات تطيح برؤوس وأعناق.

أما حياته في جانبها الاجتماعي والعائلي فلا يعرف منها سوى نتف قليلة، وكل الذي نعرفه أن والده قد قتل على يدي عبدالمؤمن (51)، وأنه كان متزوجاً من بنت أحد زعماء المرابطين، المدعوة "بنت الصحراوية" (52)، وأن لديه أبناءً نستدل عليهم من قوله في أحد أبيات نونيته السابقة:

وصبية كفراخ الورق من صغر لم يألّفوا النوح في فرع ولا فنن

وهي إشارة إلى مجموعة عيال، والمقري يذكر أن هذه القصيدة كان قد بعثها ابن عطية مع ابن له صغير إلى الخليفة أمير المؤمنين (53)، ويذكر المراكشي في المعجب أن لأبي جعفر أحمد بن عطية حفيداً يدعى "أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر" وكان فقيهاً متفنناً (54)، وعلى كل فإننا لا نملك أخباراً أو تفاصيل عن حياته الخاصة سوى هذه النتف التي لا تغني ولا تبلى. وهكذا انتهت حياة ابن عطية وهو ما يزال في ذروة عطائه ونضوجه وانطوت صفحته على عمر لم يتجاوز السادسة والثلاثين، فقد كان مولده سنة 517هـ. أما أخوه عطية فقد قتل وعمره 23 سنة (55).

وفي خاتمة حياة هذا الرجل ينقل ابن عذاري المراكشي عن الرواة الثقات

"أنه لم يبلغ مبلغ ابن عطية أحد من الكتاب ولا الوزراء المتقدمين في جده

ومجده وكتابته وفصاحته ونصحه وخدمته وسلوكه طرق المكارم واجتنابه

للمحارم والتذاذه بقضاء المسائل وتلطفه في توصيل الرغباء من مضطر

وسائل" (56).

أما المقري فيشبه نهايته ومصيره بنهاية ابن الخطيب ومصيره، حيث يقول

عن ابن عطية: "وبالجملة فالرجل كان نسيج وحده، رحمه الله تعالى وسامحه،

وقضية لسان الدين تشبه قضيته، وكلاهما قد ذاق من الذلّ بعد العزّ غصته،

وبدل الدهر نصيبه من الوزارة وحصّته، بعد أن اقتعد ذروة الأمر

ومنصّته" (57).

أدبه:

دخل أبو جعفر بن عطية ديوان الأدباء بفضل رسائله النثرية التي كتبها عن

مخدومه عبد المؤمن الموحي منذ أن فتحت أمامه أبواب القصر الخلافي في

مراكش، ولم يعرف عنه غير النشر من نتاج أدبي سوى قصيدته النونية في استعطاف الخليفة عندما غضب عليه وأودعه السجن، وهي القصيدة التي كانت صرخة في واد أو نفخة في رماد — كما يقولون — فلم تحقق غرضها، ولم تُج صاحبها من القدر المحتوم، والأجل المكتوب، وقد سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من صفحات (58)، كما أوتر عنه بيتان رقيقان من الشعر قالهما في السجن وهما:

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا وها أنا في ليل من السَّخَط حائر
فقد آن أن تتسى الذنوب وأن تمحى (59) ولا أهتدي حتى أرى للرضى

صُبْحاً

والشعر وليد المحن، تفجّره الأزمات والمواقف الصعبة، وأدينا ابن عطية الذي عانى الكتابة فترة طويلة من الزمن يدرك أن للشعر خصوصية وتأثيراً في النفوس قد لا يحققهما النشر مهما رقّ ولان وعذب، فامتطى الشعر على ندرة امتطائه وقلة ممارسته إياه، فأبدى تمكناً من سهوته وقدرة على

معالجته وتطويعه لأداء غرضه، ولكن النونية هي بيضة الديك التي لم تتكرر،
فقد عاجله الحين، كما سبق توضيحه.

وعلى كل حال فإننا لن نقف عند أبياته الشعرية، ولا نتعرض لها في
دراستنا لأدبه، وإنما سنفصل القول في نشره وما كتبه من رسائل ذاتية أو
ديوانية للتعرف إلى مكانته الأدبية وقدراته في هذا المجال الذي هو، في
الحقيقة، ميدانه الرئيس وحلبته التي برز فيها، ونال بسببه حظوة كبيرة
ومكانة رفيعة استحقتها عن جدارة.

رسائله:

توفرت لدينا مجموعة من رسائله — هي ليست كل نتاجه كما هو واضح
من النصوص — ولكنها تمثل قيمة أدبية يمكن الركون إليها في دراسة نشر ابن
عطية وتقويم مكانته الأدبية من خلالها، وعند الرجوع إلى تلك الرسائل

يتضح أنها جميعاً من المراسلات الديوانية، وليس فيها غير قطعة واحدة في غرض الاستعطاف، كتبت إلى السلطان ولم تصدر عنه، كما هو الحال في المراسلات الأخرى، فهي تتعلق بسبب بالمكاتبات السلطانية وإن لم تتدرج تحت لوائها، ومن باب التجوز أن نتعرض لها ونقف عندها لما تستحقه من عناية ولما تقوم عليه من عناصر عاطفية وإنسانية قد لا تتوافر في نتاجه الرسمي — الذي سنفصل القول فيه فيما بعد .

رسالته الاستعطافية:

من خلال نظرة فاحصة في رسالته الاستعطافية التي كانت بحق وليدة ظرف ألمّ به، ومحنة أصابته، والتي وجهها إلى وليّه ومخدومه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي يلتمس فيها العفو والغفران ويستعطف فؤاده، ويستدرّ صفحه، والنص قطعة من رسالة لم تصل إلينا كاملة فهي مبتورة المقدمة خالية من اسم من وجهت إليه عاطلة من الرسوم المعروفة والمعهودة على عهدهم في كتابة الرسائل، ولكننا نعرف من حشو الرسالة أنها موجهة إلى

ال خليفة عبد المؤمن، وأنها كتبت إبان محنة ابن عطية وفي ذروة غضب الخليفة عليه، وأنها اقترنت بزيارة أمير المؤمنين قبر الإمام المهدي بن تومرت، وكان الخليفة قد استصحبه - وأخاه أبا عقيل عطية- معه منكوبين بحال ثقاف(60). ولكن هذه الرسالة، بما أنها وليدة المعاناة وحصيلة التجربة الشخصية، تمتاز بخاصية وجدانية ذاتية، تعبر عن نفسية أزعجها شبح الموت، وهزهز من رصانتها وقوتها هزات القيود وأصوات الأصفاد، وهي تختضّ مع كل حركة أو نقلة يقوم بها - هو وأخوه- في مكوثهما أو تنقلهما. فلا غرابة أن نلمس مثل هذه المغالاة في رسالته، وهذا التذلل في طلب العفو واستدراار الشفقة، وهذا الحشد من ذكر جسام الذنوب التي سجلها، فكأنه يقول: إنه لو اقترف كبار الجرائم وجسام الذنوب كالتي ارتكبها عصاة التاريخ وعتاته ومتمردوه فكانت وصمات سوداً على جبين مرتكبيها، لم تمحها الأيام ولا الدهور، ثم كان له أن يلجأ إلى قبر الإمام المعلوم المهدي المعصوم لنال الشفاعة والمغفرة والعفو .. فكيف به، وهو لم يقترب ذنباً ولا جرماً.

وعلى كل حال، فإن الرسالة أو المتبقي منها تتمّ عن ثقافة واسعة كان يمتلكها أديبنا، تسترشد التاريخ والأديان بشكل خاص في تدعيم غرضه وتعزيز ما يهدف إليه من توصل إلى نتائج هي في محصلتها انتزاع العفو والغفران من الخليفة. ولا تغرب عن بالنا، ونحن نقرأ سطوراً من الرسالة، رسالة ابن زيدون الجدية التي كتبها هو الآخر في السجن موجهة إلى أبي الحزم بن جهور (61)، بل إن الرسالتين تلتقيان في أكثر من فكرة، ففي كليهما نجد فكرة تمرد إبليس وتكبره عن السجود لآدم، وعدم طاعة أمر الله في ذلك تقف على رأس الكبائر، يقول ابن زيدون: "وما أراني لو أنني أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت" (62)، والفكرة نفسها تتردد في قول ابن عطية: "تالله لو أحاطت بي كل خطيئة .. حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود" (63)، وبعد نص ابن زيدون السابق مباشرة يأتي تمرد ابن نوح على أبيه وامتناعه عن الركوب معه في السفينة، وهو ذنب كبير آخر اقترفه إنسان بحق والده، وجحود ابن لأب كان يدعو إلى الخير والنجاة، فيقول ابن زيدون: "وقال لي نوح: "اركب معنا" فقلت: "سأوي إلى جبل

يعصمني من الماء"، وفي نص ابن عطية يأتي ذكر نوح هو الآخر مباشرة بعد ذكر عصيان إبليس لأمر الله في السجود لآدم. ولكن ابن عطية لم يذكر جحود ابن نوح وعصيانه لوالده، وإنما ذكر ما هو أعظم وأكبر من ذلك، وهو ذنب من ينكر إحياء الله تعالى لنوح ببناء الفلك، وهذا بحد ذاته كفر جسيم، يقول ابن عطية: "وقلت: إن الله تعالى لم يُوح في الفلك لنوح". وجاء في الرسالة الجديدة قوله: ".. وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة"، والفكرة نفسها تأخذ ثوباً آخر في قول ابن عطية: ".. وقلت: إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة".

وعندما يقول ابن زيدون: "... وضحيْتُ بالأشمط الذي عنوان السجود به"، ويقصد بالأشمط عثمان بن عفان .. وقصة مقتله، فإن ابن عطية يكررها مستخدماً اللفظ نفسه (الأشمط)، حيث يقول في رسالته: "... واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ..."، وفي رسالة ابن زيدون إشارة إلى قتل علي بن أبي طالب بيد عبدالرحمن بن ملجم، فيأخذ ابن عطية الحدث نفسه فيشير إليه بقوله: "وغادرت الوجه من الهامة خضيباً"، والرسالتان تلتقيان في

الجو العام الذي يسودهما وطريقة البناء، فهما تعتمدان أصلاً على مقدمات تحشد الذنوب وكبائر الأعمال لتصل بعد ذلك إلى أن كاتب الرسالة الذي هو ابن زيدون في الأولى ثم ابن عطية في الثانية لو اقتترف هذه الذنوب كلها أو بعضها ثم طلب العفو والمغفرة من سيده لئالهما ولحصل عليهما .

فابن عطية في رسالته كان يحذو حذو ابن زيدون وعلى نسقه يبني حتى "ليخيل إلى الأديب - من أول وهلة- أنها قطعة منها أو خلاصة عنها" (64)، وهو لا يبعد أن يكون مطلعاً عليها بل حافظاً لها متأثراً بها، ولكن ابن عطية كان في رسالته أكثر ليونة وحسن جرس وسجع .

وقبل أن ننتهي من هذه القطعة النثرية نود أن نشير إلى أن بعض المصادر أوردتها مستقلة عن الشعر وبعضها الآخر جاء بها مسبوقة بأبياته النونية في الاستعطاف(65)، التي سبق أن أشرنا إليها، والنصان - النثر والشعر- في كل الأحوال يعالجان موضوعاً واحداً وغرضاً واحداً ويهدفان إلى مرمى واحد، وقد صدرا عن فؤاد مكلوم ورجل مظلوم يمرّ في ظرف قاهر قاس .

فالنصان إن لم يكونا رسالة واحدة فهما بحكم النص الواحد حيث يكمل أحدهما الآخر.

رسائله الديوانية:

يعد كتاب "مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية" الذي اعتنى بإصداره الأستاذ إ. ليفي بروفنسال من أهم المصادر وأغناها في النشر الديواني الموحد، حيث ضمّ الكتاب سبعة وثلاثين رسالة ديوانية، ولكنه يعدّ أكثر أهمية فيما يتعلق بنثر أديبنا ابن عطية، فقد اشتمل الكتاب على ست عشرة رسالة نسبت إلى المترجم له.

ومن خلال تدقيق تلك المجموعة من الرسائل يتضح للمدقق أن بعض تلك الرسائل التي نسبت إليه ليست في الحقيقة له، فقد جاءت الرسالة العاشرة حسب ترتيب الناشر ممهداً لها بما نصه: "لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية" (66)، وهذا القول يشعر بالشك في نسبتها إلى كاتبنا، وقد وردت الرسالة نفسها كاملة في كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي دون ذكر أو إشارة

إلى كاتبها (67)، ولكننا نرجح كونها له وذلك لاعتبارات عديدة منها أنها كتبت بتاريخ السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (68)، ولم يكن في هذا التاريخ كاتب للخليفة عبد المؤمن سوى صاحبنا، بل كان في هذه الفترة يعيش أوج عزّه، وزهو مكانته، ثم إن الرسالة من حيث الرسوم والتدرج الشكلي في مقدمتها وحشوها وخاتمتها تتفق مع رسائله الأخرى، وكذلك الأسلوب والصياغة وبناء العبارة كلها تشير إلى طريقته وتقترب من قلمه وصياغته.

ومثلها جاءت الرسالة الحادية عشرة مجهولة النسبة، لأنها جاءت مبتورة الرأس فلم يعرف كاتبها ولا اسم المرسل ولا تاريخ كتابتها، ولكن السياق يظهر أنها كتبت عن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى جهة ما من بلاد الموحدين يخبرهم فيها بثورة أخوي المهدي بمراكش (69)، وما حلّ بهما وبأنصارهما من عقاب. وقد أشارت الرسالة إلى أن الموحدين قد قبضوا على الشقيين المذكورين، ولكونهما يتصلان بالإمام المهدي المعصوم برحم فقد حكم عليهما بالبقاء الإجباري في مدينة مراكش ثم بعدها سرّحاً واختير لهما سكنى فاس

— حرسها الله — بجميع أهليهما وبنيهما لينزلوا بقرارتها خير منزل" (70)،

ولكنهما ما لبثا — حينما شعرا أن الفرصة مواتية لهما — أن ثارا وأيدهما خلق

من فاس ثم توجهوا مع مؤازريهما إلى مراكش فقتلا عاملها الشيخ أبا حفص

عمر بن تفراجين (71)، ولكن أمرهما لم يطل، فقد تمكن الموحدون من

القضاء على ثورتهم وحز رأسيهما ورؤوس الفتنة من أنصارهما (72). وعند

تتبع أخبار ثورة أخوي المهدي في كتاب البيان المغرب نجد أن تفاصيل

خروجهما عن طاعة عبدالمؤمن المذكورة، كما روتها الرسالة وقد أشار

المراكشي إلى أن الخليفة وجه ابن عطية إلى الثائرين، فكان له دور متميز

ومؤثر في القضاء على الثورة المذكورة (73)، وكان ذلك في ذي القعدة عام

ثمانية وأربعين وخمسائة (74)، وبعد القضاء على الناكثين ودخول الخليفة

مراكش أمر الوزير الكاتب أبا جعفر بن عطية بالكاتب إلى جميع البلدان،

فكتب بما لا يجال معه من الفصاحة والبلاغة في ميدان (75).

وتأسيساً على ما سبق من أحداث تاريخية، ومن توافق بين ما جاء في

الرسالة وما جاء في البيان المغرب، وفي غيره من المصادر ومما صرح به

المراكشي من أن الخليفة أمر أديبنا بالكتابة في الحدث المذكور إلى البلدان
يتحقق لدينا أن الرسالة المذكورة هي من إنشاء ابن عطية.

ووردت الرسالة التاسعة عشرة منسوبة إليه، ولكن تاريخ كتابتها يشير إلى
أنها كتبت بعد وفاة ابن عطية، حيث ذكر أن تاريخها في ذي القعدة سنة أربع
 وخمسين وخمسمائة (76)، وهي وإن كانت تحذو حذو رسائله الأخرى من
حيث الشكل والرسم فإن الأحداث التي تتحدث عنها الرسالة تؤيد أنها كتبت
بعد وفاته، فقد ورد ذكر لحصار المهدية - ودعاء الكاتب بأن ييسر الله فتح
هذه المدينة، حيث قال: "فإننا كتبناه إليكم... بظاهر المهدية- فتحها
الله" (77)، أي أنها لا تزال قيد الحصار.

وكذلك أشارت الرسالة إلى أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي باختطاط
مدينة بجبل طارق (78)، وفي ختامها يسير إلى فتح (قفصة) ومخاطبة عرب
قابس (79)، وعند الرجوع إلى هذه الأحداث يتأكد لدينا أنها كتبت في التاريخ
الذي ذكرته الرسالة في ذيلها، فقد ورد في كتاب المن بالإمامة أن الخليفة
عبد المؤمن قد بعث بكتابين إلى إشبيلية مبشرين بالفتوح، أحدهما مؤرخ في

الثاني من ذي الحجة من عام أربعة وخمسين وخمسمائة وقد كتب بظاهر المهديّة(80)، وأعتقد أن هذه الرسالة التي لم يحدد ابن صاحب الصلاة نصّها هي رسالة أخرى بعثها الخليفة من ظاهر المهديّة أثناء حصاره لهذه المدينة التي تمّ فتحها فيما بعد - وكما ورد في الخطاب الثاني الموجه إلى إشبيلية أيضاً- بتاريخ عاشوراء من عام خمسة وخمسين وخمسمائة(81)، كما أن ابن صاحب الصلاة يشير إلى صدور كتاب من الخليفة إلى إشبيلية أيضاً بتاريخ ربيع الأول من عام خمسة وخمسين وخمسمائة يتضمن الإشارة إلى فتح فقهية(82)، ومخاطبة عرب قابس بني سليم بالتوحيد وطلب الأمان(83). ولا ننسى أن جواز الخليفة عبدالمؤمن إلى الأندلس ونزوله جبل طارق بعد فتح المهديّة كان في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة(84).

أي أن جوازه كان بعد أن أنجز السيد الأعلى أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ما أمره الخليفة به من بناء مدينة جبل طارق(85)، وجميع هذه الأحداث تؤكد أن الرسالة المذكورة هي ليست لابن عطية وإنما لغيره من

الكتاب، ويرجح الدكتور التازي "أن منشئها أحد شخصين إما ابن المرخي أو القالمي، فقد كانا معاً منشئين في هذه الفترة" (86)، ولا يخلو ما في تاريخ تدوين الرسالة ومكان صدورها وما تذكره المصادر من تواريخ لوقوع الأحداث التي وردت فيها من اختلافات واختلاطات تحتاج إلى وقفة لتخريجها وتوضيحها، ولا نرى أن المجال هنا يسمح بمثل ذلك (87).

ونسبت الرسالة الثالثة والعشرون من ترتيب الكتاب إلى ابن عطية وقد وصفها بروفنسال بأنها رسالة الفصول (88)، والذي أثار شك نسبتهما إليه أنها مؤرخة في 3 ربيع الأول عام 556هـ أي بعد وفاة ابن عطية بسنوات، والرسالة في "إقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات" (89)، وقد فصلت القول وأطالت في معالجة موضوعها الإصلاحي في "إحياء معالم السنة وإحكام أمراسها" (90)، وليس في مضمونها ما يستدل على أنها له، لأن موضوعها عام وغير خاص، فالرسائل التي تناولت مثل هذه القضايا الدينية العامة كثيرة في فترة الموحدين، وفي كتاب نظم الجمان رسالة سميت أيضاً برسالة "الفصول" وهي منسوبة إلى ابن عطية،

ومضمونها يتناول الإصلاح والتوجيه، وأنها "جامعة لأنواع من الأوامر، الباقية فخرًا لمن تفاخر، خلدت من مآثره - يعني عبد المؤمن - السنية، وأوامره السنية، ووصاياه الحكيمة، وآدابه العلمية، ما يقر معه بفضله كل سامع لها وآثر" (91). فالرسالتان تتشابهان من حيث المضمون والموضوع، ولكننا لا نؤيد نسبة الاثنتين إلى ابن عطية، وترجيحنا أن الرسالة الثانية هي له، فقد جاء في حشوها أن تاريخ كتابتها هو السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة (92) أي أنها كتبت في حياة ابن عطية، كما أن تسميتها برسالة الفصول جاءت من نص في حشوها " .. فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل" (93)، وقد نبه محقق كتاب نظم الجمان (94) إلى أن هذه الرسالة هي المقصودة بما ذكره عبد المؤمن في رسالته إلى طلبة صنهاجة تأسفرت عندما قال: "وتصلكم طي كتابنا هذا نسخة كتاب خاطبنا بمثلها كل جهة من جهات الموحدين - وفقهم الله - فيما قرب وبعد، وحملناها من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله ويعضد، ورأينا قضاءها إليكم لتتألوا من بركاتها ما تجدون أثره قريباً" (95)،

ويفهم من هذا النص أن رسالة الفصول كانت إمعاناً من السلطة إلى جميع الجهات والأصقاع التي تخضع للموحدين، ويؤكد هذا الفهم نص آخر ورد في البيان المغرب يقول: "في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة أمر أبو محمد عبد المؤمن بالكتب للبلدان لما استقر بمراكش مريحاً للنظر في مصالح المسلمين وقوام أمر الموحدين وكان رفع له أن المظالم قد ظهرت والقبالات في الأسواق اشتهرت فكتب أبو جعفر بخطه عنه كتاباً إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ يأمرهم فيه بالمعروف والنهي عن المنكر وعن سفك الدماء، ... ووجه منه نسخاً كثيرة إلى بلاد الأندلس والعدوة" (96)، وهو بذلك يعني - بلا شك - رسالة الفصول آنفة الذكر.

أما الرسالة التي أوردها بروفنسال في مجموعته وسماها وهماً برسالة الفصول فهي من النماذج التي حاكت أسلوب ابن عطية وطريقته وأفكاره أيضاً وسارت على منواله، ولكنها ليست له لما ورد في تاريخ كتابتها من صراحة ووضوح تشيران إلى أنها كتبت بعد وفاته. كما أن تسميتها برسالة الفصول وهم لا أساس له من الصحة.

ولقد غدت رسالة الفصول لابن عطية التي أشرنا إليها سابقاً، نموذجاً يحاكي من قبل الكتاب وخاصة حينما يكلفون بتدوين مراسلات في الموضوع ذاته، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن النماذج التي جرت على مجراها - غير ما سبق ذكره - رسالة كتبها أبو الحسن بن عياش عن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في الثالث من شهر رمضان سنة 561هـ (97).
وتأسيساً على ما سبق يكون لابن عطية أربع عشرة رسالة بعد استبعاد رسالتين له هما الرسالة التاسعة عشرة والرسالة الثالثة والعشرون من ترتيب بروفنسال.

وكتاب "مجموع رسائل موحدية" يعدّ بحق المصدر الأهم لنثر ابن عطية الديواني، بل هو المصدر الوحيد الذي يضم هذا العدد من رسائله. وليس فيما عداه سوى رسالة الفصول في كتاب نظم الجمان. أما الرسالة الواردة في كتاب "صبح الأعشى" وهي غير منسوبة إلى أحد فإنها نص الرسالة العاشرة ضمن كتاب مجموع رسائل موحدية التي رجحنا نسبتها إلى كاتبنا (98).

ومن المؤسف أننا لم نجد في المصادر الأخرى التي تعرضت لابن عطية
نثراً سوى رسالته الاستعطافية التي وجهها إلى عبد المؤمن بن علي (99)،
ورسالته الماسية التي كتبها عن أبي حفص في موقعة وادي ماسة، والتي
أورثته المجد (100)، أما عدا ذلك فإن مصادر أخرى كانت تكتفي بوصف ابن
عطية بالأدب والكتابة وتغفل تثبيت أي شيء من نثره.
وسنبقى في أمل انجلاء بعض النصوص من كتاباته ورسائله القيمة من
خلال اكتشاف ونشر مخطوطات تضم شيئاً من تراثه الثرّ والكثير، الذي يمثل
فترة مهمة من تاريخي الموحدين.

رسوم رسائله:

لما كان تكوين ابن عطية الثقافي والعلمي قد تمّ في العصر المرابطي فهو —
بلا شك— متأثر بطريقتهم في الكتابة، ولكنه ومن خلال تحمله مسؤولية
الكاتب الأول للخليفة لم يكتف بما تعلمه في العصر السابق، بل بدرت منه
أساليب ورسوم جديدة متطورة عما هو عليه الحال في الرسائل الديوانية

المرابطية، ولقد كان لمكاتباته وصيغ بناء رسائله تأثير كبير على جيل الكتاب الرسميين من بعده، حتى غدت سنناً يحذو حذوها الآخرون، مما سنتعرض له فيما بعد . وعلى كل حال فإن الرسائل الديوانية – وكما هو معروف – كانت تتقيد بأساليب ورسوم معروفة تكاد أن تكون مقننة ثابتة، فهم ليس كما يذكر أحد الباحثين من أن الأندلسيين لم يحتفلوا بمطالع الرسائل وخواتيمها مثل احتفال المشارقة بها (101)، وقد أوردنا منها ستة أنماط في بحثنا عن المكاتب الرسمية في عهد الموحدين، وثمانية أنماط للرسائل الموجهة من الأمراء والحكام والقضاة إلى الخلفاء (102)، وعند العودة إلى رسائل ابن عطية نجد أنها كانت كلها – سوى الرسالة الاستعطافية والماسية – من الرسائل الديوانية الرسمية التي صدرت من مركز الخلافة وبتوجيه من الخليفة نفسه، وعند التأمل في الرسم الذي اتبعه ابن عطية في بناء رسائله نلمس أنه كان يعتمد صيغة واحدة في إطارها العام مع اختلاف بسيط يحدث في ترتيب عناصرها ورسومها، وهذه الصيغة تقوم على الشكل التالي (103):

- أن تبتدئ الرسالة بالبسملة والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه

وسلم، ثم يذكر لقب المكتوب عنه مقروناً بالدعاء له بما يليق بمقامه، وتأتي

بعد ذلك بذكر اسم المكتوب إليه أو صفته وقد تشير إلى مكان الإقامة، ثم

تأتي بما يناسبه من دعاء، وتعقبه بتحية الإسلام ثم بالبعدية (104)، فالحمد

لله والصلاة على نبيه والسلام عليه، ثم الترضية على الإمام المعصوم المهدي

المعلوم، ثم تنتقل بعدها إلى فقرة جديدة يبدأها الكاتب بقوله: "وكتابنا هذا"

أو ما يشبهه، مشفوعاً بالدعاء بمعنى الكتابة، ويذكر بعدها اسم الحضرة التي

صدرت الرسالة عنه، ولا ينسى الدعاء للحضرة بما يناسب ويليق... وقد

يسجل تاريخ كتابة الرسالة قبل أن يلج الموضوع الأساس للرسالة التي تختتم

عادة بتحية الإسلام. وخير مثال على هذه الصيغة رسالته المسماة برسالة

الفصول التي جاء نصها كاملاً في كتاب نظم الجمان (105)، حيث جاءت

مقدمتها على الصورة التالية:

"بعد البسملة والصلاة:

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره، وأمده بمعونته، إلى جميع
الطلبة الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة، وفقهم
الله تعالى واستعملهم بما يرضاه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد .

فالحمد لله، وهو اللطيف الكريم .. وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة
المباركة والتسليم ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم والرضا عن الإمام
المعصوم، المهدي المعلوم الذي بعثه رحمة للمؤمنين، ... وكتابتنا هذا . وكتب الله
تعالى لكم كل رأفة ورحمة وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم
فيمن قدم لدار قراره ونعمه - من الحضرة العلية بتينمّل - حرسها الله
تعالى - في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسائة،
وقد وصلنا - والحمد لله - وجناح الرحمة مخفوض ... إلخ" (106).

ومن الملاحظ أن هذه الرسالة هي الوحيدة التي ذكر ابن القطان أنها
مبتدئة بالبسملة والصلاة على النبي، أما بقية رسائله الديوانية فقد ابتدأت
بذكر لقب المكتوب عنه الذي هو أمير المؤمنين.

وقد أشار القلقشندي في كتابه صبح الأعشى إلى هذا اللون من
المراسلات وأوجزه بقوله: "كان الرسم فيها أن يقال: "من أمير المؤمنين فلان"
ويدعى له بما يناسبه "إلى فلان ...". ويدعى له بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام
ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم
والترضية عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى على المقصود ويختتم
بالسلام، والخطاب فيها بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب
إليه" (107).

وإذا كانت الرسالة السابقة موجهة إلى الطلبة بالأندلس ومن صحبهم من
المشيخة والأعيان دون تخصيص فإن مكاتبات أخرى قد ورد اسم المكتوب إليه

صراحة، كما في قوله من رسالة: "من أمير المؤمنين ... إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج ..." (108).

أما تاريخ كتابة الرسالة فإننا نلاحظ أن ابن عطية كان يغفل ذلك في بعض مكاتباته (109)، ولكنه كان يورد التاريخ في حشو الرسالة في بعضها الآخر - وكما هو ملاحظ في رسالة الفصول التي سبق الاستشهاد بها، أو أن يأتي به في ذيل الرسالة (110)، والطريقة الأخيرة ظلت قائمة متبعة فترة طويلة بعده.

ويبدو أن ابن عطية قد استفاد مما كان معمولاً به من رسوم وصيغ إبان عصر المرابطين، ونقله إلى الديوان الموحي، وأضاف إليه رسوماً جديدة اقتضتها طبيعة المرحلة، وأوجدتها فلسفة العقيدة والسياسية الموحدين، ويمكن تلخيص ذلك بما يأتي:

أ- من الرسوم التي نقلها ابن عطية عن المرابطين فسنّها في نهج

المكاتبات الموحدية وأقرت من بعده فغدت أسلوباً موحدياً هي:

ذكر اسم المكان الذي صدرت عنه الرسالة. (111)

ذكر تاريخ كتابة الرسالة في حشو المكاتبه (112)، وقد انتظم هذا الرسم

عند ابن عطية في رسالة الفصول والرسالة الثالثة من المجموع فقط.

استهلال الموضوع الأساس للرسالة، بعد ذكر الرسوم التمهيدية

التي تحدثنا عنها، بلفظ - كتابنا- (113)، وقد أضاف إليه ابن

عطية دعاء للمرسل إليه - مشتقاً من فعل الكتابة، بدلاً مما كان معمولاً

به أيام الرابطين وهو الدعاء بشكل عام.

ب- أما الرسوم التي يعتبر ابن عطية سابقاً في إضافتها إلى رسوم

المكاتب الموحدية والتي غدت صيغاً معروفة يحذو حذوها الكتاب من بعده

فهي:

ذكر اسم المرسل.

ذكر اسم المرسل إليه.

تحية الإسلام ثم التحميد والبعدية.

الصلاة على الرسول.

الترضية عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم.

ومما سبق تتضح معالم الرسالة الديوانية في عصر الموحدين وتتحدد رسومها وعناصرها، وهي على كل حال معالم تجمع بين ما أخذ عن المرابطين وما أضيف إليه في بدايات عصر الموحدين، والفضل بجملته يعود إلى صنعة ابن عطية وابتكاراته، وقد طبعت الصبغة العطوية، بشكل عام، مكاتبات الكتاب الديوانيين من بعده طوال عصر الموحدين، وإذا كانت هناك إضافات تذكر على رسائلهم الديوانية فهي لا تعدو أن تكون إضافات هامشية وغير جوهرية، ولا أعتقد أن مؤلف المعجب كان يقصد هذه الرسوم والصيغ التي اعتمدها مكاتباتهم حينما تحدث عن أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عيَّاش (ت 619هـ) كاتب الخليفة الموحي أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن وابنه محمد وابن ابنه يوسف بقوله: "ولم يكتب لهم - أي للموحدين - منذ قام أمرهم من عرف طريقتهم وصب في قلوبهم وجرى على مهيعهم، وأصاب ما في نفوسهم كأبي عبدالله بن عيَّاش هذا، فإن القوم لهم

طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلوكوا
مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة" (114)، لأن ابن عطية كان
أسبق منه إلى توظيف تلك الرسوم والصيغ في مكاتباته وأقدم في
استعمالها (115)، ولكنني أرى أن المراكشي كان يقصد بمقولته السابقة شيئاً
آخر. ولقد وهم أيضاً في الموضوع نفسه أحد الباحثين (116) فجعل الفضل
كله لابن عياش في تقعيد رسوم كتابة الرسائل الديوانية الموحدية، فالذي
نعرفه أن ابن عياش هذا قد اعتمد الرسوم العطوية نفسها ولكنه خفف
رسائله من بعضها ولم يبلغها أو يأتي ببدائل عنها (117).

مضامين رسائله الموضوعية والفنية:

لقد أشرنا فيما مضى إلى المكانة الرفيعة التي حظي بها ابن عطية في
بلاط الموحدين، والدرجة المرموقة التي نالها لدى أمير المؤمنين عبدالمؤمن ابن
علي حتى غدا كاتبه ووزيره في آن واحد، وهما مكانة ودرجة لا يبلغهما أحد
أو ينالهما محظوظ إلا إذا كانت لديه من المؤهلات العلمية والثقافية ومن

المقومات الشخصية والذاتية ما تعجب مخدمه وتستحوذ عليه، ويبدو أن ابن عطية كان جديراً بذلك، مؤهلاً لينال تلك الحظوة ويطول تلك الصهوة حتى "عدّ أول وزير للدولة الموحدية بالمعنى الصحيح، فألقيت إليه مقاليدها، فكان وزير حكمها بلا منازع، كما كان مستشارها في تسيير أمورها وتحريك دواليبها الإدارية" (118). وإذا كان كتاب الدواوين "حريصين على نوال رضا رؤسائهم وزيادة الحظوة لديهم، متوسلين إلى ذلك بما يقدمونه من إبداع في مكاتباتهم، ومن قدرات على فهم ما يدور في خاطر السلطان أو الأمير أو المخدم، وما يرغب في التعبير عنه وإيصاله إلى الآخرين ممن تكتب إليهم الرسائل" (119)، فإن ابن عطية قد ساعدته على ذلك مؤهلاته الذاتية وثقافته الواسعة ومعارفة الجمّة، إضافة إلى ما كان يتمتع به من حنكة ولباقة وذكاء وسرعة بديهة وكياسة وخلق سمح ومكارم، وقد ألمحنا إلى ذلك في حديثنا عن حياته، وإذا كنا هنا نريد أن نكتب عن جوانب رسائله الفنية فإن ذلك يقتضي الوقوف عند جملة النصوص التي أثرت عنه لنستخلص منها ما يكشف عن ومضات فنية رائعة أو صور بديعة ظريفة، صاغها قلمه المبدع وهو

يكتب عن أمير المؤمنين إلى رعيته في موضوعات سياسية أو دينية أو اجتماعية.

ولقد كان ابن عطية مُعْجَباً في كلِّ ما كتبه، لأنه — وأمثاله من كتاب الدواوين — يجاهدون من أجل الوصول إلى تقدير مخدومهم وإثارة إعجابه بما يكتبون "ولذا فإننا نقدر أن الرسائل الرسمية قمة في الجودة الفنية، لأن منشئها يوظف كل قدراته الفنية والعلمية والثقافية وما يمتلكه من معارف لإخراج رسائله في أبهى رونق وأحسن شكل، وألطف لفظ وأعمق معنى وأوضح دلالة لتثير أولاً دهشة مولاه، ولينتزع، ثانياً، إعجاب المجلس الذي ينصت إلى تلك الرسائل سواء في الحاضرة التي تكتب فيها أو الحاضرة التي تكتب إليها. (120) فكانت رسائله بحق مشتملة على قدر كبير من الصنعة والعناية متوشحة بالمحسنات البلاغية، والرونق الشكلي الذي يضيف عليها جمالية مميزة، ولكن مثل هذه الرسائل الديوانية لا يمكن وصفها بصدق التعبير ولا بعفوية التدفق لأنها لا تصدر عن وجدان كاتبها أو تنقل عواطفه وأحاسيسه الذاتية، فهي تكتب عادة عن غيره ولأنها تتناول موضوعات لا

تصح فيها العواطف والانفعالات، ولا تكمن فيها المشاعر أو الوجدانات، فهي غالباً ما تكون في مجالات الوعظ والإرشاد والنصيحة أو مجالات التهديد والوعيد أو الإخبار عن حدث أو خطب من حرب أو فتح أو غيرهما.

وعلى كل حال فإن ابن عطية يعد "مؤسس الترسل السلطاني في دولة الموحدين بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة" (121)، وكان أسلوبه بليغاً سهل المأخذ منقاد القريحة سيال الطبع" (122)، يستند فيه إلى قاعدة عريضة تقوم على ما يمتلكه من ثقافة متنوعة ومن خبرة وتجربة وباع في ميدان الأدب اكتسبها عن أبيه الذي كان يشتغل في صناعة الكتابة الديوانية من قبل (123)، وفي دراسة مضامين رسائله لا بد أن نقف عند موضوعاتها وفنونها وما ارتكزت عليه من ثقافة دينية أو تاريخية أو بلاغية أسلوبية، وهو ما سنفصل القول فيه:

أ- موضوعات رسائله:

تدور موضوعات رسائله في مجالات محددة بحكم طبيعة الهدف الذي تكتب من أجله الرسالة، فما دامت الرسائل السلطانية تصدر عادة عن مركز الخلافة أو توجه إليه فمن البدهي أن تحتوي على ما يخص السياسة والحكم والتوجيه ومخاطبة الرعية، وأن تعالج قضايا تهتمّ الخليفة أو الحاكم.

ومن نظرة إلى رسائل ابن عطية نجد أن رسالته الماسية التي بعثها عن أبي حفص من وادي ماسة إلى الخليفة عبدالمؤمن كانت تحمل البشرى بالنصر على الثائر الماسي المدعي للهداية (محمد بن عبدالله بن هود) ومصرعه والقضاء على ثورته، وفي الموضوع ذاته كانت رسالته الخامسة حسب ترتيب بروفنسال في كتابه مجموع رسائل موحدية، وهي في الحق موجهة إلى طلبة سبتة يخبرهم - على لسان الخليفة- بوصول كتابهم عن غزوة أسطولهم على النصارى بمدينة المرية. وفيها تخلص لما وقع بين المسلمين والنصارى في البحر من قتال عنيف، والإشادة ببطولة المقاتلين المسلمين، ثم حمد لله وشكر له على هذا الفتح ...

ويأتي بإشارات إلى أمور أخرى تطرقت إليها رسالة طلبية سبّته الموجهة

إلى الخليفة عبد المؤمن.

وكانت الرسالة التاسعة من المجموع نفسه تتحدث عن غزوة الموحدين في

البلاد الشرقية وظفرهم على الأعراب بناحية سطيف، ويقصد بهم قبائل بني

هلال .. "واستمر القتل فيهم والاتباع لهم من أول ذلك اليوم المبارك إلى آخره

ولم يسر الموحدون فيه —على ما ذكروه— إلا بين إبل راتعة وسائمة، وخذور

على عمدتها منصوبة قائمة ... حيّ إلى جنب حي وشيء متصل بشيء مسيرة

أربعين أو خمسين من الأميال. فبأعداء الله ما بهم من قتل مفن، وانهزام

مبعد وحمّام مدن، ... غشيتهم تلك الفواشي الغوافر، فذل لها المأمور منهم

والآمر، وحق الويل بهلال بني عامر ... (124).

وتضمنت رسالته الحادية عشرة من المجموع المذكور إخبار الولاة والشيوخ

من الموحدين بالقضاء على ثورة أخوي المهدي (عبد العزيز وعيسى) بمراكش

وما أنزل بهما وبأنصارهما من عقاب شديدة (125): "وكان حكم الله فيهم

حز رؤوسهم من أجسادها، وتصيير نفوسهم إلى سوء مصيرها
ومهادها" (126).

أما رسالة الفصول فقد تضمنت قوانين العدل والسياسة والرياسة - كما
يقول ابن عذاري (127)، وفيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقيد
بأحكام الدين، في معالجة بعض الخلل والمفاسد التي وصل خبرها إلى
ال خليفة، من ذلك مثلاً: جرائم القتل من غير حق والاعتداء على المسلمين
وسلب أموالهم، ومظالم بعض الولاة في ضرب الناس بالسياط، وكذلك أمر
الضرائب والمغارم والمكوس، وما يتعلق بتزويج المرأة المطلقة دون
استبراء (128)، ومحاربة شرب الخمر ومراقبة مواضع بيع "الرُّب" (129)
واعتصاره للتأكد من كونه لم يبلغ حدود التحريم، وتعرضت أيضاً لما يقع فيه
الرقاصون من حملة البريد من استغلال للناس "يحلون بأفنية الناس حلولاً
شنيعاً يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم" (130).

ثم تختتم الرسالة بالدعوة إلى معاملة الرعية بالشفقة والحنان والرفق
والعدل.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الرسالة تأخذ أهميتها مما جاء فيها من إشارة

صريحة إلى اتباع رسم جديد اعتمده الخليفة عبد المؤمن في مراسلاته، وهو

إثبات العلامة الموحدية بخط يد الخليفة نفسه، فقد ذكرت الرسالة ما نصه:

"ولما كان هذا الأمر عندنا - وفقكم الله تعالى - أهم أمر وأوجبه وأحق ما

أدناه الحق وقربه ... رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا، وها هي

قد رفعت الأشكال رفعاً بيّناً، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبيناً" (131)، وقد

أصبحت هذه العلامة إشارة مميزة إلى مراسلات الخلفاء من بعده. وفي

عودة إلى موضوع الوعظ والإرشاد وتوجيه الحكام بالحفاظ على أحكام الدين

والتمسك بقانون الإسلام في التعامل مع الرعية .. ودعوة الرعية إلى الالتزام

بآداب الإسلام وتعاليمه وتجنب ما يغضب الله ورسوله، نلمس أن هذا

الموضوع يستحوذ على معظم رسائله بشكل عام ولكنه ينفرد في بعض من

رسائله بشكل خاص، مثلما هو في رسالة الفصول السابقة، ومن تلك

المكاتبات التي عالجت الموضوع المذكور: رسالته الأولى ضمن ترتيب

بروفنسال في مجموع رسائل موحدية والرسالة الثالثة التي تشير إلى رسالة

طبيها - هي أشبه بالإعمام على أقطار الدولة كافة - تحتوي على وصايا وتوجيهات. وإننا لنؤيد هنا ما ذهب إليه الدكتور محمود علي مكي من أن المطوي هو رسالة الفصول، لأن تاريخ كتابة الرسالة الثالثة كان بعيد كتابة الفصول بأحد عشر يوماً (132).

والموضوع مثله في الرسالة السادسة الموجهة إلى المشيخة بقرطبة، والرسالة الخامسة عشرة التي وجهها الخليفة إلى طلبة سبتة. وقريب من الغرض السابق رسائل كتبت إلى بعض القبائل أو الأمراء الحاكمين ممن لم يستسلموا للموحدين وظلوا مجانبين للتعاون معهم أو الانضواء تحت لوائهم، تدعوهم على لسان الخليفة إلى الإيمان بدعوة الموحدين وتحبب إليهم تعاليمها وتكبر في نظرهم مؤسسها وقائدها الذي هو الإمام المهدي، وهذه الرسائل هي: الرسالة الرابعة في مجموع رسائل موحدية وقد وجهها أمير المؤمنين إلى الشيخ الأجل أبي زكريا يحيى بن علي يعني ابن غانية، فقد جاء فيها في أمر المهدي ومكانته قوله: "وهذا الأمر - وفقكم الله، هو أمر المهدي - رضي الله عنه - حق فتأمل، ومع معالمة الجلاء فلا ظن ولا

تخيل، والمهدي- رضي الله عنه- قد بشر به النبي - ص- في غير ما حديث،
وظهرت علاماته وآياته في قديم مزامره وحديثها، ودلّ على اسمه وزمانه،
وفعله ومكانه بأدلة رفعت الأشكال والتعسف، فأتى - رضي الله عنه- كما
نعت النبي - عليه السلام- ووصف ... إلخ" (133).

وقد تكرر الغرض نفسه في رسالته السابعة التي صدرت عن الخليفة إلى
الشيوخ والأعيان وجميع من بقسنطينة، والرسالة العاشرة التي بعثها إلى
الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد، يعني ابن مردنيش، حيث تضمنتا -
كالسابقة- الدعوة إلى الإيمان برسالة المهدي واعتناق مذهب الموحدين الذي
جاء "لإراحة جميع أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه
من المغارم ويعرفونه من أسباب المظالم" (134).

ويتضمن فحوى الرسالة الثانية عشرة تصنيف الموحدين إلى ثلاث طبقات
يبين قدر كل واحد منهم، وهي بعد مقدمة طويلة في النصح والوعظ ينتقل
الكاتب إلى عرضه الأساس فينصّ على التالي: "وابتدئ بتطوير الناس على
طبقات ثلاث يعرف بها كلّ واحد قدره ويقف بها عند حدّه .. فالطبقة الأولى

هم السابقون الأولون الذين بايعوا المهدي - رضي الله عنه - وصحبوه وغزوا معه وصلّوا خلفه والذين شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها .. ويتلو هذه الطبقة من آمن بهذا الأمر، ودخل في هذا الحزب وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران، والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هلمّ جرّاً" (135).
وتعالج رسالته الثالثة عشرة مسألة ولاية العهد، فتركز على أن تسمية محمد ابن أمير المؤمنين ولياً للعهد جاءت تلبية لرغبة المشايخ والطلبة والعشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية (136)، ولم يكن مخططاً لها من قبل أو مرسوماً في نفس الخليفة "فاعلموا - وفقكم الله - بأن ذلك ليس له في نفوسنا عقد سابق، ولا نظر لاحق، ولا طرق الضمير من أنبائه طارق" (137)، وتأتي الرسالة الرابعة عشرة لتؤكد الغرض السابق نفسه وتشير إليه (138)، ولكنها تضيف إلى تسمية ولي العهد أموراً أخرى تتعلق بتعيين بعض أبناء الخليفة ولاية على بعض الأصقاع الموحدية، وتأتي ذلك كله استجابة لرغبة أبناء البلاد وجمهور الموحدين، فمنهم مثلاً أبناء تلمسان "فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضر من أهل حواضرها وبواديها أن

يكون لهم من هذا الأمر المتجرّد والشأن المسعد حظ يفوزون بنعماء ويفوزون
منه أزكى قسمة وأنما، بأن يستصحبوا من الإخوة المذكورين - يعني أبناء
ال خليفة- من يكون إليه استنادهم ويدور عليه اجتماعهم واعتمادهم ...
إلخ" (139)، ومثله تفعل غمارة وسبّته (140). وكل هذه الأمور أتت "على غير
قصد منا ولا ذكر، بل على وجوه يُعلم بالضرورة أنها نشأت لأحيائها، وظهرت
دون مقدمة لأعيانها" (141)، وتأكيد الكاتب في رسالتيه السابقتين أن اختيار
ولي العهد والولاية من أبناء أمير المؤمنين بطلب من الرعية وبإلحاح من
الجمهور يقوي المقصود ويعزز الغرض في كسب تأييد الآخرين وموافقتهم
وبالتالي مبايعتهم.

هذه هي جملة الأغراض التي عالجتها رسائل ابن عطية وهي في الواقع
متفرعة عن الإطار العام الذي هو الرسائل الديوانية، ومعبرة عما يتطلبه
ويطلبه المقام الخلافي من شؤون واهتمامات.

ب- خصائصها الفنية:

لما كانت الرسائل الديوانية - وكما ذكر سابقاً - تصدر عن حضرة الخليفة وتتحدث بلسانه، فلا بد أن يبذل منشئها في صياغتها جهداً كبيراً وأن يسخر كل إمكاناته اللغوية والأسلوبية والثقافية ليخرجها بأحسن صورة وأجمل رونق، وأن ينمقها بالألفاظ الرقيقة وبالعبارات الرصينة، معززاً إياها بما يختزن في ملكته من التراث الديني والأدبي وما يعرفه من أخبار وتاريخ وقصص ومواعظ وحكم. وقد يميل أحياناً إلى الجزالة والبسالة في ألفاظه وعباراته، حتى يعطي كل مقام ما يستحقه من مقال، فيجيد التعبير في كل ما يطلب منه، ويسيل قلمه بلا تعثر ولا تردد أو إحجام، ولكون كتاب السلطة "يعالجون موضوعات متنوعة ويعبرون عن توجهات الحكام ووصاياهم وآرائهم في مختلف القضايا والشؤون، فإن طبيعة عملهم تتطلب منهم بالضرورة ثقافة موسوعية وخزناً من المعارف والمعلومات التاريخية والدينية والأدبية وغيرها ليكون الكاتب قادراً ومتمكناً من تناول تلك الموضوعات والتعبير عنها بوضوح ودقة تحققان هدف المكتوب عنه وغايته، وتصيبان ما في نفسه" (142)، ومن وقفة مع ابن عطية ندرك أنه كان يتمتع بكل ما تتطلبه

هذه الصنعة من قدرات ذاتية ومن مواهب وصفات، كما نلمس بجلاء أن نثره الديواني كان يتسم بخصائص فنية معينة، ويتحلى بسمات ومزينات أسلوبية أو لفظية مميزة تعكس ما تزخر به ذاكرته من فيض المعارف التراثية بشتى صنوفها وألوانها، ويمكن أن نحصر ما تحلت به رسائله من خصائص فنية بالنقاط التالية:

أ- كان ابن عطية يمتلك قاعدة ثقافية عريضة، تزخر بشتى ألوان المعرفة، وفي المقدمة منها معلومات دينية واسعة من حفظ لآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم وتفسير لهذا وذاك وما يتعلق بهما من أخبار وقصص وسير، وقد تجلت ثقافته تلك بوضوح في رسائله حيث استخدم ذلك التراث في نسيج بنائه النثري، وعدّ عنصراً مهماً من عناصر مقومات رسائله الديوانية، لأن غرض الموضوع والهدف من تلك المكاتبات يقتضيان بل ويستلزمان حضور مثل تلك المعارف، وقد أحسن ابن عطية في استخدامها وتوظيفها، فجاءت قوة في الفكرة ورصانة في الصياغة وجودة في التعبير عما يراد التعبير عنه، وهنا تظهر الحنكة والذكاء في

الاستعانة بالتراث وتسخيره أداة طيعة لخدمة غايات الكاتب. ومن خلال رسائل ابن عطية نقف على استشهاده بنصوص من آيات القرآن الحكيم أو أحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، ففي رسالة الفصول أكثر الكاتب فيها من الاستناد إلى الاستشهادات الدينية لما تستوجبه طبيعة موضوع الرسالة، لنسمعه يقول: "والشقي من أتى مليماً، باكتساب الكبائر ملوماً" وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً"، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأمين، وفي الحز على ذلك يقول وهو أصدق القائلين: "وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (143)، ثم يستطرد الكاتب قائلاً في الصفحة نفسها: "وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء وبرأفته كشف عنهم العماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء" (144).

وفي مكان آخر من الرسالة نفسها يقول: "ولا يمرون بآذانهم ما يفعل الله تعالى بأمثالهم ولا يحذرون" يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" (145)، وقبل هذا النص أورد حديثاً نبوياً بقوله:

"والنبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول: "من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول: يا رب: سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة؟" (146).

واستخدم نصوصاً أخرى من حديث النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال وهو يتحدث في رسالة الفصول عن تحريم الخمر: "الحلال بين والحرام بين ولقضايا الشرع نظام، قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته عليه وسلم: "ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام" (147).

وقد يأخذ الكاتب ابن عطية جزءاً من النص القرآني أو النص النبوي أو يأخذ معناه فيضمنه مكاتباته ليسند فكرة أو يقوي رأياً أو يعزز نسيجاً أو يرصن لغة. فمن ذلك قوله: "فتزودوا، فإن خير الزاد التقوى" (148)، وهذا مجزوء من الآية الكريمة: "وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى" (149). وقال في رسالة أخرى: "وألفته الأهواء وحجت المناصحة فيه الأسماع، ونسي كلُّ ربه فأنساه نفسه" (150)، فقد استخدم

الكاتب روح الآية الكريمة وحافظ على معناها لأن نص الآية يقول: " وَلَا

تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ " (151)، وفي عبارة أخرى يأخذ

جزءاً من آية فيحسن الأخذ والحفاظ على روحية النص القرآني ومعناه، يقول

ابن عطية: "وترددت عقولهم المعقولة بين نفاثة في عقدها" (152)، وهو معنى

مأخوذ من القرآن الكريم في سورة الفلق: "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي

الْعُقَدِ" (153)، وعندما يقول في موضع آخر: "حصحص الحق الذي لا يدفع،

وظهرت الأصول التي يبنى عليها ويرفع" (154) فإن جملة حصحص الحق،

في الحقيقة، مقتبسة من قوله تعالى في سورة يوسف: "قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ

الآن حَصَّحَصَ الْحَقُّ" (155). وجاء في رسالته الماسية قوله: "وأملئ الله لهم

ليزدادوا إثماً" (156)، وهو بلا شك قد نظر إلى قوله تعالى: "إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ

لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ" (157)، ويأخذ قوله: "ونسلت إليه الرسل من

كل حَدَبٍ" (158) من الآية الكريمة: "حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ

كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ" (159)، ولقد أكثر من الاقتباس من الآي الحكيم في

رسالته الماسية هذه (160).

ومن اقتباساته من روح الحديث الشريف وألفاظه ما جاء في رسالة له: "ما أراهم طلبه فرضاً، وكونه كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً" (161)، فهو واضح الاستفادة من الحديث الشريف الذي يقول نصه: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً" (162).

وفي رسالة أخرى يشير ابن عطية إلى حديث نبوي دون أن يذكر نصه فيقول: "والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور، ونستعيذ به سبحانه من الحور" (163)، والهور كما ذكر محقق نظم الجمان هي "النقصان"، وفي مقولة ابن عطية إشارة إلى الحديث الشريف: "نعوذ بالله من الحور بعد الكور" أي من النقصان بعد الزيادة أو نعوذ به من فساد أمرنا بعد صلاحها" (164)، فالكاتب لم يضمن الحديث بنصه وإنما جاء بمعناه وفكرته مستفيداً منهما في معالجة موضوعه الذي هو التحذير من مفاسد أصحاب البريد وما يوقعونه من مظالم على الرعية.

وفي موضع آخر يستفيد الكاتب من جزء من الحديث الشريف كقوله: "وسروا بصالح عملكم وبشروا ويسروا — كما قال عليه الصلاة والسلام — ولا

تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا" (165)، ونص الحديث هو: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" (166)، فكان الكاتب متصرفاً بالنص ولكنه مستفيد مما يحتويه من مضامين وأفكار.

أما في مجال استخدام التراث الأدبي والتاريخي في بناء الرسائل الديوانية فلم يكن واضحاً مثلما هو في التراث الديني الذي أشرنا إليه آنفاً، ولكنه كان بيّناً وواضحاً في رسالته الاستعطافية، ومع ذلك فقد كان ابن عطية يمتح من مخزونه ما أمكن، ليضمّن مكاتباته منه، أمثالاً شائعة أو أقوالاً مأثورة أو ألفاظاً نادرة معبرة، وليسير، ولو بطرف خفي، إلى معارفه واطلاعه وثقافته، فمن تلك الاستخدامات للمأثور الأدبي قوله: "وأقبل جميع من ذكرناه لكم ... بقضهم وقضيضهم" (167)، والمثل العربي يقول: "جاء القوم قضهم بقضيضهم" (168).

ويقول في رسالة أخرى: "فلا متردم من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء" (169)، وأرى أنه مأخوذ من قول شاعر الجاهلية عنتره العبسي:

"هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم"

وفي رسالته الماسية – وكما لا حظنا آنفاً – التي كانت سبب شهرته ورفعة

مكانته تضمنين كثير من الثقافة الأدبية، وكأنه كان بهذه الرسالة يمتحن

قدراته ويعصر قريحته الأدبية والفنية ليظهر إمكاناته الدفينة، ويشير إلى

منزلته التي كان ينعم بها في بلاط المرابطين، فلنسمعه يقول فيها:

"وتقلب في النعم أكرم مُنقلب، وملاً دلاء الأمل إلى عقد الكَرَب:

فتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشْب(170)

فالبيت الشعري من قصيدة أبي تمام المشهورة

"السيف أصدق أنباء من الكتب".

وفي قوله: "عقد الكرب" تذكير بقول قديم، بل مثل سائر يقول نصه: "شدّ

عقد الكرب"(171).

ومثله ما جاء في قوله: "وتساقطوا على وجوههم كتساقط الذباب" (172)،

حيث اقتبس من المثل المعروف فكرته وجزءاً من ألفاظه "يتساقطون تساقط

الذباب على الشراب" (173).

أما قوله: "لبسوا الناموس أثوابا وتدرعوا الرياء جلبابا" (174) فهو

مستفيد من قول الشاعر أبي بكر أحمد بن محمد الأبيض في هجاء الفقهاء:

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب يَخْتَل في الظلام القاتم (175)

ب- اهتم ابن عطية بالصياغة الشكلية وجمالية التناسق والتوافق بين

الجميل وما يتولد عن الحروف من جرس أو صوت، ولذا فقد أعطى أديبنا

للسجع وللسجع الداخلي أهمية فائقة، لأنه يدرك مقدار ما يخلفه السجع من

تأثيرات في نفوس السامعين، كما عني بالمحسنات اللفظية والشكلية الأخرى

من وسائل وأساليب بلاغية معروفة كالجناس والطباق والتشبيه والكناية إلى

غير ذلك.

وعند تتبع رسائله وما تضمنته أو اعتمدته من صيغ وأساليب بلاغية لتحسين الشكل أو تزيينه فإننا نلاحظ أن نصوصه كانت تراوح في سجعها بين السجعتين والثلاثة حتى تصل إلى اثنتي عشرة سجعة، يقول في إحدى سجعاته الثنائية: "ولتعلموا - وفقكم الله وسلك بكم سبيل هداة- أن قصد هذا الأمر الكريم، في الحضور والعموم، إظهار دين الله تعالى على ما أوجب وفرض، وجهاد من نكب عن سبيله وأعرض، وقطع آثار الظلمة كثيرها وقليلها، وإجراء الأمور كلها على منهجها الشرعي وسبيلها" (176)، أما سجعته الطويلة فمناها قوله: "ولحين ما عاين أعداء الله قصد الموحدين على مضاء الاعتزام، وباشروا آثار الارتباط الإيماني والالتزام، راموا فحيل بينهم وبين المرام ... إلخ" (177)، حيث أورد اثنتي عشرة سجعة ميمية مسبوقة بالألف .. أما ما بين النوعين السابقين فهو كثير في رسائله ويمكن اكتشافه من القراءة الأولى للنصوص.

وكان يفرع في سجعاته فيأتي مثلاً بمجموعة من الجمل مسجوعة على حرف ثم ينتقل إلى سجعة أخرى ليعود بها إلى السجعة الأولى نفسها، وهكذا

يلون ويغير في وقع الأصوات ليخلق منها موسيقى قريبة للشعر تشد السامع وتنشط القارئ أو المتلقي .. من ذلك مثلاً: "أما بعد فالحمد لله الذي تكفل بوعده الصادق، إتمامه وإنجازه، وتحصل لحزبه الآخر السابق، إعلاؤه وإعزازه، وتقلقل في عدوه الفاسق المارق، قهره وإعجازه، والصلاة على محمد نبيه الأمين، الذي أظهر على حقه المبين، إظهاره وإبرازه، والتفت على أمره المكين، صدور العلاء وأعجازه، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، الذي تجلى بهم تعين الإسلام وامتياز، والرضوان المستدام عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، موضح سبيل الرشاد حين عم استغواء الشيطان واستفزاز، ومنجح أسباب الارتياح إذ تيسر اغتنام المطلوب وانتهازه" (178)، ونرى في القطعة السابقة أن ابن عطية قد فرع ونوع في تقفيته حيث بنى القطعة على لزوم ما لا يلزم فالتزم بالحروف (الألف والراء والهاء) ثم كان يأتي بسجعة أو سجعيتين ليعود بعدها إلى تقفيته الأولى (179). ويمكن أن نلاحظ في القطعة نفسها استخدام الكاتب التقفية الداخلية في عباراته الأولى من النص. وهو أسلوب يضيف جمالية شكلية صوتية على النشر، منه قوله: "نحمده بما يتعين من

حمده الواجب، ونصلي على محمد نبيّه العاقب" (180)، ومنه أيضاً في رسالة أخرى: "فأدوا من حق هجرتهم البرّة ... ما قلده، ونالوا من خير الزيارة والبيعة .. ما اعتمدوه" (181)، وهذا النوع من أنواع السجع هو ما يطلق عليه الكلاعي اسم المغصن (182)، ولزوم ما لا يلزم أسلوب عرفه الشعر ونظم فيه الشعراء متباهين بمقدرتهم اللغوية، ثم انتقل إلى النثر فغدا الكتاب يعتمدونه في استعراض لغوي، لكنه لا يخلو من جمالية فيما إذا أحسن استخدامه، وروعي عدم الإكثار منه، لئلا يتحول إلى تصنع ممجوج ثقيل. ولا بن عطية - كما لاحظنا قبل قليل - اصطناع لهذا اللون البلاغي في رسائله الديوانية رغبة منه في إضفاء جمالية عليها وإظهار مقدرته اللغوية وتفننه الأدبي .. من أمثلة استخدامه للزوم ما لا يلزم قوله: "واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محلّ قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه، وهجر الأوطان والقطنان لطلب الرضوان به واغتنامه، فكيف به وقد أظلتكم في عقر دياركم رايته، وتجلت بين أظهركم آيته، وتأكدت في الوجوب عليكم واللزوم لكم ولايته" (183).

وإذا كان لزوم ما يلزم يدعو إلى القسر والتكلف مهما يحاول الكاتب تخفيفه وعدم الإكثار منه، فإن سجعهم بشكل عام يأتي "عفو الخاطر غير متكلف ولا مجتلب لذاته، فهو ذلك اللون الذي يحسن به الإيقاع وترتاح إليه الأسماع" (184).

ومن اهتماماته الشكلية التي تولي جانب الصوت والجرس أهمية خاصة ما نلمسه في مقدار الجهد الذي يبذله الكاتب من أجل إعطاء إنشائه رونقاً خاصاً وطعماً مميزاً، متكئاً على قدرات في الصنعة البلاغة التي تعني بجانب المحسنات من جناس أو طباق أو تورية أو غيرها . فقد يكرر الألفاظ بحروفها وصوتها أو يشتق من الأفعال مفعولاتها المطلقة أو غير ذلك من ألوان الجناس التي يحس أنها تضيف على الإيقاع أصواتاً متناغمة، وتخلق روحاً موسيقية عذبة في عباراته، فمن ذلك ما نقرأه في إحدى رسائله من تكرار: "... يقرؤها فرعاً فرعاً وأصلاً أصلاً، ويقرأها على مثلٍ مثلاً، وعلى شكل شكلًا" (185)، ومثله: "فلما اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرقوا من منشآت الكافرين ما حرقوا" (186)، ومثله قوله: "كل كبد ذات كبد، وقريحة ذات قروح" (187)،

ومنه: "وأنه إن كان هنالك من الإخوة المذكورين من يساعد ويساعد، ويعاضد في ذات الله ويعاضد، ويستدعي ما يجب استدعاؤه فلا يكابر في ذلك ولا يجاحد" (188)، ففرض التكرار واضح بيّن وهو إعطاء مزيد من التدفق الصوتي، ويظهر ذلك أيضاً في اشتقاق المفعول المطلق من الأفعال كقوله: "... فقطعوها قطعاً بتاً، وفتّوا بصرمها عن البرأعضاد الكافرين فتّاً" (189). ونجد مثله في رسالة أخرى قوله: "وولاية تنوب في تنويه جانبكم وإكلاء مطالبكم أكرم إنابة،... فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنّة شكراً تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة ... (190)"، أو يشتق من الفعل اسم فاعله كقوله: "وإن عاج عن سنة إخلاصهم عاج، وهاج عزمهم عن حماية أمرهم هائج" (191)، ومثله قوله في الرسالة نفسها: "وأخطرت على مجاري التنبية خواطرهم، وأجري النعت فيما درج عليه دارجهم، وصار إليه صائرهم" (192). ويقول في موضع آخر مستخدماً ألواناً أخرى من المحسنات اللفظية: "واعقدوا عليه المغتبط الضنين، وإنما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكن، ويتخلل جذله جوانحك تخلل المبالغ الممعن" (193).

واستخدام هذا اللون من الجناس كثير عند ابن عطية وهو مفضل لديه، ولكنه كان إلى جانب ذلك يستعين بالطباق لتحقيق غاياته في تجميل أسلوبه منه قوله: "يمحضُ اللهُ بها المؤمن ويمحق الكافر" (194)، وفي العبارة تزواج بين الجناس والطباق، وكذلك يقول: "والصلاة على محمد نبيه الذي انجابت بنوره حنادس الكفر وظلمه" (195)، ويطابق في العبارة التالية بين العدل والجور وبين الحياة والهلاك وبين السعيد والشقي إذ يقول: "... وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه، فالسعيد من لقي ربه مبرئاً من اتباع الهوى سليماً، والشقي من أتى مليماً" (196)، ويورد في مكان آخر طباقاً بقوله: "ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والإسهال" (197).

وفي مجال التورية نجد أن رسالته الاستعطافية قد أكثرت من هذا اللون إكثاراً ملحوظاً بما استخدمته من أسماء الشخوص للتورية بهم عن أشياء كان يرمي إليها الكاتب، وهذا الاعتناء بترصيع الألفاظ والاحتفال بالصنعة البديعية والبيانية - كما يقول ابن تاووت- (198) كانت طابع العصر وأسلوبه، وبها يهتم الكتاب ويتبارون فيها، ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يبتعدون أحياناً

عما يقتضيه واقع الحال، وهم يكتبون عن السلاطين والحكام، فيجنحون إلى الخيال الشعري، وإلى تضمين رسائلهم عبارات وجمالاً فيها من الصور والخيال والتشبيهات والاستعارات ما يخرج بها عما تتطلبه رسالة رسمية موجهة إلى حكام البلاد أو إلى الجمهور، ذات موضوعات سياسية أو دينية أو إرشادية أو غير ذلك من شؤون الدولة، فمن تلك الصور والتشبيهات الشعرية قوله: "حتى سطت مراقات الدماء على صفحات الماء وحكت حمرتها على زرقة حمرة الشفق على زرق السماء" (199).

ويحسن الكناية والتشبيه عندما يتحدث عن أعداء الموحدين الذين غرهم انسحاب جيوش الموحدين أمامهم لا لغلبة وإنما لخدعة رسمها قائدهم يقول: "والأقدار تجرهم برسن الإهمال أجراء، وتطوي في صدر الزمن مخبيئات من الامتحان وأسراراً" (200)، فإهمال الأعداء وسوء تقديرهم كالفرس المهمل الخامل يُجر جراً، وكأن الزمن يخبئ لهم في صدره وبين طياته من المحن والأسرار ما سوف يذهلهم ويرعبهم .. وفي مكان آخر من الرسالة نفسها يقول وهو يصف المعركة التي تساقط فيها الأعداء كتساقط الذباب

وانكسروا فيها وانهزموا: " .. فذلّ لها المأمور منهم والآخر، وحق الويل بهلال
بن عامر، أفل الهلال وخرب العامر ولم يحلّ بين سيوف الموحدين ورقاب الغلّ
من أولئك المفسدين إلا ليل أجنّه بفسقه، وطواه على أخريات رmqه ".
ومن صورته وتشبيهاته قوله: " ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنتاب، وأنفرت
حيات إذايتهم تتسلّ وتتساب، وسلّكوا في التحريب والتخريب مسلّكاً لا يشك
فيه ولا يرتاب "(201).

ج- ورسائل ابن عطية مثل بقية رسائل العصر الديوانية تستخدم في
حشوها جملاً اعتراضية في الدعاء غالباً، وبخاصة حينما يرد ذكر للخليفة
أو لأحد كبار الموحدين أو اسم لمدينة، منه قوله مثلاً: "من أمير المؤمنين - أيده
الله بنصره وأمدّه بمعونته، إلى الطلبة .. وفقهم الله وأعانهم على ما يرضاه ..
إلخ "(202).

ويقول في الرسالة نفسها: وقد صدرنا - وفقكم الله- على الحضرة العلية
- تينملّ - كرمها الله- بعد .. "(203)، وكما هي العادة الجارية في

مراسلاتهم الموحدية أن يستهلوا الغرض الرئيس من الرسالة بعبارة "وهذا كتابنا إليكم" أو ما يشبه ذلك ثم يأتوا بعدها بجملة اعتراضية دعائية مشتقة من فعل الكتابة وقد تطول أحياناً، منه قوله: "وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة، وأدام لكم نصرة ما استقبلتموه. ونصرة ما أملتكموه، أكرم إدامة، وأقام لكم في العالمين من شواهد الإخلاص أبين أمانة وأوضح علامة - من حضرة مراکش .. إلخ" (204)، (ويكون الدعاء على الأعداء أيضاً بجمال اعتراضية مناسبة، منه قوله: ولم يعلموا - وقمعهم الله - أن وقاية الله هي التي تعصم) (205)، ودعوات الصلاة والترضية تأتي أيضاً هي الأخرى بعد ما يناسبها من ذكر أو قول.

د- أخذت رسائل ابن عطية في بعض فقراتها شكل الخطبة الدينية من حيث استخدامها الأسلوب المباشر واعتمادها على أفعال الأمر، وهو نمط تفرضه - في كثير من الأحيان - طبيعة الموضوع الذي تعالجه الرسائل، وما دامت معظم محاور مكاتباتهم الديوانية تتعلق بشؤون السياسة والحكم وبمشكلات اجتماعية أو دينية، فلا بد والحالة هذه أن نتوقع كون أسلوب

المكاتبات يجنح إلى مثل هذه الصيغ واللغة الخطابية المباشرة، من تلك الفقرات ما ورد في رسالة الخليفة إلى الطلبة بسبته وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة: "فاشكروا الله، عباد الله، شكراً دائماً .. وأحسنوا ضمائرکم، وطهروا سرائرکم .. وتوبوا إلى الله جميعاً ... ونعوذ بالله من الخسران، وقد آن لكم أيها المؤمنون أن تجددوا توبتكم تجديداً وكيداً وتغتتموا من هذه النصائح .. فبادروا إلى طاعة الله .. وشدوا أيديكم .. واعلموا أنكم راحلون فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وحافظوا على إخلاص النيات، .. واصفحوا، وأصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا، واقرعوا أبواب الرحمة .. وواظبوا على تغيير المنكر .. واشتغلوا بدينكم اشتغلاً يخلصكم .. إلخ" (206)، وهكذا يستمر الكاتب في أسلوبه الوعظي الخطابي مستخدماً فعل الطلب والأمر في مخاطبه مع طلبة سبته. ولا تخرج هذه الرسالة عن خطبة دينية تلقى على جمع من المسلمين، ومثل هذه النماذج تتكرر في كثير من رسائله ... يقول في أخرى من أمير المؤمنين إلى الشيوخ والأعيان في قسطنطينة: "فبادروا— وفقكم الله— إلى إجابة منادي الحق وداعيه، واسعوا إلى الخير ..

وسارعوا بالتوبة .. واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة
بإتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه .. واستغفروا الله .. وتوبوا إلى الله ..
واحذروا ثم احذروا تمادياً على الخطيئات وإصراراً، واحرصوا .. وكونوا ...
واذكروا ... واتعظوا بغيركم فالسعيد من وعظ بغيره" (207).

هـ- أما رسائل كاتبنا من حيث الطول فهي تتراوح بين القصر البين الذي
يقرب من الصفحة الواحدة من القطع المتوسط (208) وبين الطول الذي يمتد
حتى يشمل صفحات وصفحات مثلما هي في رسالة الفصول التي استغرقت
أكثر من ثماني عشرة صفحة من القطع المتوسط (209)، والذي يحدد حجم
الرسالة موضوعها بالدرجة الأولى وما قد يولده الموضوع نفسه من أفكار
واستطرادات، ثم مقدرة منشئها، ثانياً، على التعبير والصول والجول
والتلاعب باللغة، وهو ما يميل إليه بعض الكتاب الإنشائيين من إسهاب
وإطناب. ولكن ابن عطية بشكل عام لم يكن يطيل أو يطنب إلا بالحدود التي
يفرضها عليه غرض الرسالة ووظيفتها، وما يتطلبه واقع الحال. ولكن الذي

نقرره أن رسائل الموحدين بشكل عام قد بدأت تطول وتسهب قياساً إلى
رسائل المرابطين (210).

منزلة ابن عطية:

من خلال ما تقدم تنتصب قامة ابن عطية الأدبية، وتأخذ مكانها بين كتاب
النثر الموحدي، وتستحق بجدارة ما وصفه به الأقدمون من الكتاب والنقاد
منهم ابن الخطيب الذي وصفه بعباراته الموجزة حين قال: "كان ابن عطية
كاتباً بليغاً، سهل المأخذ، منقاد القريحة، سيال الطبع" (211)، ومن قبل أشاد
به ابن عذاري قائلاً: "وذكر الرواة الثقات أنه لم يبلغ مبلغ ابن عطية أحد من
الكتاب ولا الوزراء المتقدمين في جده ومجده وكتابته وفصاحته ...
إلخ" (212). ومن بعدهما أعجب به الغبريني فجعله بمقام أبي المطرف بن
عميرة في نشره حيث قال: "وما رأيت من الكتاب ما أعجبنى مثل كُتُب الفقيه
أبي المطرف إلا كُتُب أبي جعفر بن عطية، والكتاب كثير، وكُتُب هذين الرجلين
عندي مقدم على غيرهما" (213)، وفي عصرنا الحاضر قال فيه محمد بن

تاويت وهو بصدد الترجمة له ولأخيه أبي عقيل: "إنهما مؤسسا الترسل السلطاني للدولة الموحدية، بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة على هذه البلاد، وهي في أوج عظمتها وشامخ سيادتها" (214)، أما الأستاذ عبدالله كنون فقد أشاد به وبوأه منزلة تطاول منزلتي ابن زيدون وابن عمار "إذ لا يقصر عن ابن زيدون وابن عمار وأضرابهما من ذوي الوزارتين الذين تقدموه، ولو كتب لأثاره من الخلود ما كتب لآثار الآخرين لرأينا أنه يطاء مواقع أقدامهم ويكاد يزاحمهم بمنكبه" (215)، ومما تقدم ألا يحق للخليفة عبدالمؤمن أن يندم على قتل ابن عطية وأن يبكي عليه بالدموع؟ (216) بعدما امتحن الشعراء بهجوه فما وجد فيهم من يسدّ مسدّه أو يملأ فراغه الكبير الذي خلفه .. ويقرر كلمة حق تعبر عما كان يتبوأه أديبنا من منزلة رفيعة ومكانة سامقة بقوله متحسراً متأماً: "ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه" (217). وعلى كل حال فإن ابن عطية كان أديباً فحلاً وناثراً أصيلاً متمكناً من صناعته ملماً بمقوماتها وعناصرها، متضلعاً بوسائلها وأسبابها، وكان يمكن

أن يعطي الشيء الكثير في مجال عمله لولا الدهر الخؤون الذي لم يعطه
فرصته، فكسر قلمه وأطفأ نوره وهو لما يزل في شبابه وذروة مجده وعطائه.

هوامش البحث

1- انظر: عبدالله كنون: أبو جعفر بن عطية ص 5-6، دار الكتاب

اللبناني، وقد ذكر الأستاذ كنون أن والد أحمد بن عطية قد وردت ترجمة له في الجذوة، ولكننا لم نعثر على الترجمة المذكورة.

2- لسان الدين بن الخطيب: 263/1 تحقيق محمد عبدالله عنان -

مطبعة الخانجي 1973.

3- ابن الأبار: 238/2، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة 1963.

4- نفسه، وقد وهم ابن الخطيب فجعل مولده سنة 527هـ، الإحاطة

271/1.

5- نفسه 238/2، ابن الخطيب: الإحاطة 263/1، المقرئ: نفح الطيب

183/5 تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت 1968.

6- ابن الأبار: الحلة 238/2.

7- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 212/6 (ط. بولاق 1284هـ)،

السللاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 131/2 تحقيق الأخوين
الناصرى، الدار البيضاء 1954م.

8- ابن الخطيب: الإحاطة 263/1، العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن
حلّ مراكش وأغمات من الأعلام 61/2، الرباط 1974.

9- البيذق: أخبار المهدي بن تومرت هامش ص 64، نشر عبدالوهاب
بن منصور- الرباط 1971.

ابن الخطيب: الإحاطة: 263/1، المقرئ: النفح 183/5.

10- انظر: ابن خلدون: تاريخه: 212/6، السللاوي: الاستقصا

131/2، العباس ابن إبراهيم: الإعلام 67/2.

11- ابن الأبار: أعتاب الكتاب ص 226، تحقيق الدكتور صالح الأشر،

دمشق 1961.

انظر: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب - قسم الموحدين ص 31،

تحقيق محمد الكتاني وآخرين. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، وفيهما أنه تفرد للكتابة لإسحاق بن علي بن يوسف.

12- ابن الأبار: الحلة 2/194.

13- البيهقي: أخبار المهدي ص 63 وما بعدها. وجاء في رواية أخرى أن

مقتل أبي إسحاق إبراهيم كان عام 542هـ، انظر: ابن الأثير: الكامل

299/8، ابن خلكان: وفيات الأعيان 2/43، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 281/5.

14- ابن الأبار: أعتاب الكتاب 226، ابن الخطيب: الإحاطة 1/263،

ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب 31.

15- ابن الأبار: أعتاب الكتاب 226.

- 16- المراكشي: البيان المغرب 31.
- 17- ابن الخطيب: الإحاطة 264/1.
- 18- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب ص 31، وانظر في الموضوع نفسه المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 199، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1949.
- 19- ابن الخطيب: الإحاطة 264/1.
- 20- أعتاب الكتاب ص 225.
- 21- محمد بن تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 252/1، الدار البيضاء 1982.
- 22- انظر المراكشي، المعجب: ص 198.
- 23- ابن الخطيب: الإحاطة: 264/1، السلاوي/ الاستقصا 131/2.

24- انظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 157-158، تحقيق

الدكتور عبدالهادي التازي، بيروت 1987، ابن الأبار: الحلة 2/242.

25- الحلة 2/225.

26- ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب 2/156، تحقيق

شوقي ضيف، القاهرة 1955، المقرئ: النفح 3/508.

27- انظر: المصدرين السابقين نفسيهما.

28- هو أبو عبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حبوس، مولى بني

أبي العافية، كان شاعر عبدالمؤمن.

انظر: المراكشي: المعجب ص 213-214، وانظر: ترجمته في: محمد

بن تاويت: الوافي ج 1/91 وما بعدها، وقال إن ترجمته في التكملة والذيل

والتكملة.

29- محمد بن تاويت: الوافي 100/1.

30- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 194، الرباط 1973.

31- ابن عذاري: البيان المغرب 47.

32- ابن أبي زرع: الأنيس 195، ابن عذاري: البيان المغرب ص 47-

51، البيذق: أخبار المهدي ص 78-79.

33- ابن أبي زرع: الأنيس 193-194، ابن الخطيب: الإحاطة

265/1.

34- ابن الخطيب: الإحاطة 265/1، ابن عذاري: البيان المغرب ص 56.

35- ابن الخطيب: الإحاطة 271/1.

36- ابن عذاري: البيان المغرب، ص 32.

37- انظر: المراكشي: المعجب ص 199-200، ابن الخطيب: الإحاطة

266/1، المقرئ: النفح 5/184، ابن عذاري: البيان المغرب

ص 58، 59.

38- ابن الخطيب: الإحاطة 1/265، وانظر: البيان المغرب ص 58.

39- انظر: المراكشي: المعجب 199، وفي الإحاطة 1/265 ذكر ابن

الخطيب أن ابن عطية تزوج بنت يحيى الحمار من أمراء اللمتونيين وكانت

أمها زينب بنت علي بن يوسف.

40- ابن الخطيب: الإحاطة 1/265، وانظر: المقرئ: النفح 5/183،

ابن عذاري: البيان المغرب ص 57.

41- ابن الخطيب: الإحاطة 1/265.

42- ابن عذاري: البيان المغرب ص 58.

43- نفسه، ابن الخطيب: الإحاطة 266/1، المقرئ: النفح 184/5.

44- ابن عذاري: البيان المغرب ص 59، ابن الأبار: الحلة 226/2، ابن

الخطيب: الإحاطة 266/1، المقرئ: النفح 183/5.

45- ابن الخطيب: الإحاطة 266/1.

46- ابن عذاري: البيان المغرب ص 58، وفي الإحاطة أضاف أن قتلتهما

كان بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحه 267/1، وفي الأنيس

المطرب ص 196 لابن أبي زرع جاء أن مقتل ابن عطية كان في شوال سنة

552هـ.

47- ابن الخطيب: الإحاطة 268/1، النفح 185/5، ابن أبي زرع:

الأنيس 196.

48- ابن الخطيب: الإحاطة 267/1، المقرئ: النفح 184/5، ابن أبي

زرع: الأنيس المطرب 197 وقد ألحق القصيدة النونية بالرسالة النثرية
وجعلهما شيئاً واحداً.

49- ابن عذاري: البيان المغرب ص58.

50- المقرئ: النفح 186/5.

51- انظر: السلاوي: الاستقصا 131/2، فقد أشار السلاوي الى أن

والد ابن عطية قد تحول الى خدمة عبدالمؤمن ولما حاصر الخليفة فاساً
اعتزم أبو أحمد الفرار فقبض عليه في طريقه وسيق إلى عبدالمؤمن فاعتذر
فلم يقبل عذره وسحب إلى مصرعه.

52- المراكشي: المعجب 199.

53- المقرئ: النفح 185/5.

- 54- المراكشي: المعجب 201.
- 55- ابن الأبار: الحلة 2/237.
- 56- البيان المغرب ص58.
- 57- النفح 5/188.
- 58- انظر صفحة 20 من البحث.
- 59- المقرئ: النفح 5/184.
- 60- انظر: نفسه 5/184.
- 61- انظر الرسالة في ديوان ابن زيدون بتحقيق علي عبدالعظيم ص
680 وما بعدها، القاهرة 1957.

62- ديوان ابن زيدون ص 688، وسوف نعتمد على المصدر نفسه فيما

نقتبسه من نصوص من رسالته الجديدة.

63- المقرئ: النفح 184/5، وسوف نعتمد المصدر نفسه فيما نقتبسه

من رسالة ابن عطية الاستعطافية.

64- عبدالله كنون: أبو جعفر بن عطية، ص 22، أما الأستاذ محمد بن

تاويت فقد رجح أن يكون ابن عطية ينظر إلى الجاحظ في رسالته الجديدة

التي وجهها إلى محمد بن عبدالملك بن الزيات، ولكننا نرجح أن يكون تأثير

ابن زيدون عليه أكثر- (انظر الوافي 1/253-256).

65- انظر: ابن أبي زرع: الأنيس 196.

66- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص 35، ط. رباط

الفتح 1941م.

67- القلقشندي 443/6 (ط. مصر) سنة 1915.

68- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص 37.

69- يقصد بهما: عبدالعزیز وعيسى أخوي المهدي المعصوم. وقد أشار

إلى ثورتهما ابن عذاري في البيان المغرب ص 47- 51، وانظر السلاوي:

الاستقصا 1/124.

70- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل ص 43.

71- انظر نفسه ص 44، 45.

72- نفسه ص 46، 47.

73- انظر نفسه ص 50- 51.

74- نفسه ص 48، ويذكر ابن أبي زرع خبر مقتلتهما والقضاء على

ثورتهما قريباً من رواية البيان المغرب ولكنه يجعل قتلتهما في عام 549هـ،

انظر: الأنيس المطرب ص 195، وانظر أيضاً: البيذق: أخبار المهدي ص78-79.

75- نفسه ص 51.

76- نفسه ص 69.

77- نفسه ص 96.

78- نفسه ص 97.

79- نفسه ص 98.

80- ابن صاحب الصلاة ص 70.

81- نفسه ص 70، وفي المراكشي: المعجب ص 228-230، البيذق:

أخبار المهدي ص 80، وذكر المراكشي: أن عبدالمؤمن حاصر مدينة المهدي آخر سنة 553هـ وقد دام هذا الحصار سبعة أشهر إلا أياماً حتى فتحها ثم بعدها

بعث إلى قابس من افتحها، ثم بعد ذلك افتتحت مدن وحصون عديدة منها
قفصة.

82- تقع قفصة غربي مدينة صفاقس الساحلية، وشمال قابس وجنوب

القيروان، انظر هامش المن بالإمامة ص77.

83- انظر: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص77.

84- انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ص69.

85- انظر: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص84 وما بعدها، وقد

جاء في كتاب الاستقصا للسلوي 140/2 أن ابتداء البناء في مدينة جبل

الفتح بجبل طارق كان في تاريخ ربيع الأول من سنة خمس وخمسين

وخمسائة وكمل بناؤه في ذي القعدة منها.

86- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة هامش 83، وقد يكون منشئها

عبد السلام الكومي لأنه كان أثناء حصار المهديّة كاتب الخلافة، كما يذكر البيهقي في كتابه: أخبار بن تومرت ص 80.

87- انظر: نفسه هوامش الصفحات 83، 84، 85، 91.

88، 89- مجموع رسائل موحديّة ص 126.

90- نفسه ص 128.

91- ابن القطان ص 149 بتحقيق الدكتور محمود علي مكي، الرباط.

92- نفسه ص 151، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 229، وفي

البيان المغرب جاء تاريخها في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة 543هـ. انظر ص 37 منه.

93- ابن القطان: نظم الجمان 163.

94- نفسه: هامش ص151.

95- مجموع رسائل موحدية ص6.

96- ابن عذاري: البيان المغرب ص37، وانظر ابن صاحب الصلاة: المن

بالإمامة ص229-231.

97- ابن عذاري: البيان المغرب ص94، ابن صاحب الصلاة: المن

بالإمامة ص229.

98- انظر صفحة 15 من البحث.

99- انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ص60، حيث ذكر جزءاً يسيراً من

الرسالة، ابن أبي زرع: الأنيس 196.

ابن الخطيب: الإحاطة 267/1، المقرئ: النفح 184/5، السلاوي:

الاستقصا 132/2-133.

100- انظر: ابن الأبار: أعتاب الكتاب 227- 229، ابن الخطيب:

الإحاطة 268/1، المقرئ: النفح 187/5، السلاوي: الاستقصا 110/2-

112.

101- انظر: د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي

ص188، ط. عالم الكتب - بيروت 1985.

102- انظر بحثنا عن المكاتبات الرسمية الأندلسية في عهد الموحدين

ص6 وما بعدها، الذي سينشر في مجلة المورد العراقية.

103- يستثنى من ذلك رسالته الماسية حيث جاءت مبتدئة بقوله: كتابنا

هذا من وادي ماسة، بعدما تجدد .. إلخ" فجاء ذكر المكان فقط دون الزمان

ودون ذكر اسم المرسل منه والمرسل إليه .

104- جاءت البعدية في عموم رسائله بلفظ "أما بعد" سوى الرسالة

السابعة حيث وردت بلفظ "وبعد حمد الله"، انظر مجموع رسائل موحدية
ص17.

105- انظر الرسالة في: ابن القطان ص150 وما بعدها.

106- نفسه.

107- القلقشندي 443/6 (ط. مصر).

108- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص3.

109- انظر مثلاً: رسالته الأولى ص1 ورسالته الثانية ص3.

110- انظر مثلاً: نفسه: رسالته الرابعة ص6، رسالته السادسة ص13.

111- انظر مثلاً مراسلات ابن الجد عن أمير المسلمين علي بن يوسف

بن تاشفين، ابن خاقان: قلائد العقيان 324/1، 333. بتحقيق الدكتور

حسين يوسف خريوش، الأردن 1989.

112، 113- نفسه.

113

114- المراكشي: ص 264.

115- قتل ابن عطية عام 553هـ، أما ابن عياش فقد توفي سنة

619هـ، وكانت خدمته الديوانية لأول مرة عند الخليفة أبي يوسف يعقوب

الذي حكم للفترة (580-595هـ)، انظر المعجب 261، 263.

116- انظر: يوسف عروج: النشر الفني في عهد الموحدين بالمغرب

والأندلس ص 260، رسالة ماجستير- على الآلة الكاتبة- مقدمة إلى جامعة

دمشق 1983، وفي الجامعة الأردنية نسخة عنها.

117- انظر بحثنا: المكاتبات الرسمية الأندلسية "النموذج الخامس من

رسوم الصنف الأول.

118- محمد بن تاويت: الوافي 1/252.

119، 120- د. السعيد: المكاتبات الرسمية الأندلسية، الجانب الفني.

120

121- محمد بن تاويت: الوافي 1/256.

122- ابن الخطيب: الإحاطة 1/263.

123- السلاوي: الاستقصا 2/131.

124- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص 33.

125- نفسه 38 وما بعدها.

126- نفسه ص 47.

127- البيان المغرب: 37.

128- الاستبراء هو التريث على المرأة حتى تحيض ويتأكد عدم حملها،

نظم الجمان، هامش ص 160.

129- الرَّبُّ - كما في لسان العرب: الطبخ الخاثر من عصير العنب،

وقال الدكتور التازي إن اسم الرب معروف لحد الآن في إسبانيا ويطلق على

نوع من المتاولات ARROPE، وقد كان شربه معهوداً لدفع شدة البرد والثلج،

لكن الموحدين انتبهوا الى أنه مسكر فأصدروا الأمر بمنعه وذلك سنة 580هـ.

(انظر: المن بالإمامة، هامش ص 113-114، وانظر مجموع رسائل موحدية،

الرسالة 28 صفحة 164، الاستقصا 2/188).

130- ابن القطان: نظم الجمان ص 162.

131- نفسه 164.

132- انظر: رسالة الفصول: نظم الجمان ص151، وانظر هامش

الصفحة نفسها، والرسالة الثالثة من مجموع رسائل موحدية ص5.

133- إ. ليفي بروفنسال: ص8.

134- نفسه ص21.

135- نفسه ص54.

136- انظر: نفسه ص57.

137- نفسه ص59.

138- انظر: نفسه ص62.

139- نفسه ص63.

140- نفسه ص64.

141- نفسه ص65.

142- د. السعيد: المكاتبات الرسمية الأندلسية - مصدر سابق -

ص19.

143- نظم الجمان ص153، والآية الأولى من سورة النساء رقم 111،

والآية الثانية من سورة الشعراء رقم 215.

144- نفسه ص 153، والحديث الشريف في صحيح البخاري/ كتاب

الجنائز 79/2، وانظر تخريج الحديث هامش صفحة 153 من كتاب نظم

الجمان.

145- نفسه ص154، الآية من سورة البقرة، رقم 9.

146- نفسه ص154، والحديث الشريف - كما ورد في هامش

الصفحة عن محقق كتاب نظم الجمان - وارد عند الإمام ابن حنبل في

مسنده وخرجه عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقد استند
المحقق إلى كتاب عبدالرؤوف المناوي: فيض القدير في شرح الجامع الصغير
192/6 - 193.

147- نفسه ص161، والحديث الأول "الحلال بين والحرام بين" أورده
البخاري في صحيحه 20/1، ومسلم 50/5، وابن ماجه 476/2 - 477.
انظر هامش الصفحة نفسها.

أما الحديث الثاني: ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام، فقد قال محقق
نظم الجمان: إن الذي جاء في كتب الصحاح: "ما أسكر كثيره فقليله حرام"،
انظر "فيض القدير" للمناوي 420/5، وسنن ابن ماجه 332/2، وسنن
النسائي 300/8 - 301، وسنن أبي داود 130/2، راجع بصدد ذلك هامش
الصفحة نفسها من نظم الجمان.

148- مجموع رسائل ص3.

149- الآية 197 من سورة البقرة.

150- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص53.

151- آية رقم 19 من سورة الحشر.

152- مجموع رسائل موحدية ص41.

153- آية رقم 4.

154- مجموع رسائل موحدية ص69.

155- سورة يوسف رقم الآية 51.

156- ابن الخطيب: الإحاطة 1/269.

157- سورة آل عمران آية رقم 178.

158- ابن الخطيب: الإحاطة 1/269.

159- سورة الأنبياء آية رقم 96.

160- انظر: محمد بن تاووت: الوافي ص 258-259.

161- مجموع رسائل موحدية ص 63.

162- ورد الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

195/3، وقال: إن هذا الحديث قد أخرجه البخاري 8 كتاب الصلاة - باب

تشبيك الأصابع في المسجد وغيره.

163- ابن القطان: نظم الجمان 163.

164- نفسه، هامش ص 161.

165- نفسه ص 166.

166- انظر نفسه هامش ص 166.

167- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص30.

168- الميداني: مجمع الأمثال 161/1 فيما أوله جيم، بتحقيق محمد

محيي الدين عبدالحميد.

169- مجموع رسائل موحدية ص52.

170- ابن الخطيب: الإحاطة 269/1.

171- انظر: محمد بن تاويت: الوافي 259/1، وقد ذكر أن " عقد

الكرب" هو الحبل الموصول بالرشاء الملوي على خُشبيّات الدلو المعروفة.

172- الإحاطة 270/1.

173- انظر: ابن تاويت: الوافي بالأدب 259/1.

174- الإحاطة 269/1.

175- التجيبي: زاد المسافر 113، المقرئ: النفح 3/448، وروي البيت

في المعجب لابن البني (أبو جعفر أحمد بن محمد) ص 171.

176- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص 21، وانظر ابن

القطان نظم الجمان ص 157 حيث أورد مجموعة من السجعات الثنائية.

177- نفسه ص 32.

178- نفسه ص 27.

179- انظر مثله ص 14 من الكتاب نفسه حيث بنى الفقرة على حرف

الحاء ثم أورد أثنائها تقفيات أخرى.

180- نفسه ص 1.

181- نفسه ص 4.

182- الكلاعي: أحكام صنعة الكلام ص240، بتحقيق الدكتور محمد

رضوان الداية، دار الثقافة- بيروت 1966.

183- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص190، وانظر منه

ص16.

184- د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد ص576.

185- إ. ليفي بروفنسال مجموع رسائل موحدية، ص48.

186- نفسه ص12.

187- نفسه ص14.

188- نفسه ص65، وانظر ص14.

189- نفسه ص11.

190- نفسه ص15.

191- نفسه ص68.

192- نفسه ص69.

193- نفسه ص9.

194- نفسه ص54.

195- نفسه ص4.

196- ابن القطان: نظم الجمان ص153.

197- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص29.

198- محمد بن تاويت: الوافي 1/257.

199- ابن الخطيب: الإحاطة 1/270.

200- إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص 33.

201- نفسه ص 42.

202، 203- نفسه ص 1.

203

204- نفسه ص 14.

205- نفسه ص 44.

206- نفسه ص 2-3.

207- نفسه ص 18-19.

208- انظر الرسالة الثانية في كتاب: مجموع رسائل موحدية ص 3-4.

209- انظر رسالة الفصول في كتاب: نظم الجمان 150-167.

210- انظر: ابن شريفة: أو المطرف ص181، والدكتور السعيد:

المكاتبات الرسمية الأندلسية - مصدر سابق ص30.

211- الإحاطة 1/263.

212- البيان المغرب ص58.

213- عنوان الدراية، ص299، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1969.

214- الوافي 1/251.

215- أبو جعفر بن عطية ص13.

216- انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ص58.

217- المقرئ: النفح 5/186.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن القضاعي

(ت 658هـ):

أ. أعتاب الكتاب: تحقيق الدكتور صالح الأشتري، طبعة مجمع اللغة

العربية بدمشق 1961.

ب. الحلة السيرة: تحقيق الدكتور حسين مؤنس - الشركة العربية

للطباعة والنشر - القاهرة 1963 (الجزء الثاني).

2- ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي (ت 726هـ):

الأنيس المطرب / مطبعة دار المنصور - الرباط 1973.

3- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت

630هـ): الكامل: تحقيق عبدالوهاب النجار، مصر، المطبعة المنيرية
1353هـ.

4- ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف الأتابكي (ت 808هـ):

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مطبعة دار الكتب بالقاهرة
1935.

5- ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله) (ت 529هـ):

قلائد العقيان، بتحقيق الدكتور حسين يوسف خريوش، ط. مكتبة المنار -
الأردن 1409هـ - 1989م.

6- ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد التلمساني (ت

776هـ): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، طبعة
الخانجي - القاهرة 1973.

7- ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون المغربي (ت 808هـ):

العبر وديوان المبتدأ والخبر، أو تاريخ ابن خلدون، ط. بولاق 1284هـ.

8- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت

681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين

عبد الحميد، مطبعة السعادة بالقاهرة 1948م.

9- ابن زيدون: أبو الوليد أحمد (ت 463هـ):

ديوان ابن زيدون، تحقيق علي عبدالعظيم، القاهرة، مطبعة نهضة مصر

1957م.

10- ابن سعيد الأندلسي: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت

685هـ): المغرب في حلل المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة

1955.

11- ابن شريفة/ دكتور محمد :

أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، منشورات المركز الجامعي للبحث

العلمي - الرباط 1966.

12- ابن صاحب الصلاة: عبد الملك: المن بالإمامة: تحقيق الدكتور

عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان 1987.

13- ابن عذاري المراكشي: أبو العباس أحمد بن محمد (كان موجوداً

سنة 706هـ): البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، قسم

الموحدين - تحقيق الأساتذة (محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد

زنيبر، عبد القادر زمامة)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985 - 1406هـ.

14- ابن القطان: نظم الجمان (جزء منه)، تحقيق الدكتور محمود علي

مكي - الرباط.

15- إ. ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية من إنشاء الدولة

المؤمنية، المطبعة الاقتصادية - الرباط 1941.

16- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي):

أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، نشر عبدالوهاب بن

منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط 1971.

17- التجيبي: أو بحر صفوان بن إدريس المرسي (ت 598هـ):

زاد المسافر، تحقيق عبدالقادر محداد، بيروت 1970م.

18- السعيد: دكتور محمد مجيد: المكاتبات الرسمية الأندلسية في عهد

الموحدين، بحث معدّ للنشر في مجلة المورد العراقية.

19- السلاوي الناصري: الشيخ أبو العباس أحمد خالد: الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م.

20- السيوفي: دكتور مصطفى محمد أحمد علي:

ملاحم التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ط.

عالم الكتب - بيروت 1985م - 1405هـ.

21- العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام،

المطبعة الملكية - الرباط 1974م.

22- عبد الباقي أحمد فؤاد:

اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - دار الريان للتراث - القاهرة

1986.

23- عبدالله كنون: أبو جعفر بن عطية: سلسلة ذكريات مشاهير رجال

المغرب (5)، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر- بيروت.

24- الغبريني: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله (ت714هـ):

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل

نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - بيروت 1969.

25- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت821هـ): صبح

الأعشى في صناعة الإنشا/ طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت 1987،

واعتمدت كذلك على ط. مصر 1915م.

26- الكلاعي: أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الإشبيلي الأندلسي:

أحكام صناعة الكلام، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الثقافة،

بيروت 1966.

27- محمد بن تاويت:

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة - الدار البيضاء

1402هـ - 1982.

28- المراكشي: عبدالواحد بن علي (ت647هـ):

المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد

العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1949م - 1368هـ.

29- المقري: أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ):

نفح الطيب: تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1968م.

30- الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم

النيسابوري (ت518هـ):

مجمع الأمثال 1- 2، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار القلم -

بيروت/ لبنان.

31- يوسف عروج:

النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس، رسالة ماجستير - على

الآلة الكاتبة - مقدمة إلى جامعة دمشق 1983.

الملحق

رسائل أبي جعفر بن عتبة

الرسالة الأولى:

من أمير المؤمنين-أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين
بسبته والاشياخ والاعيان والكافة بها -وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماء-
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله أهل التقوى والمغفرة، وولي الرحمة الشاملة والرافة
الواصلة والميسرة، الذي نور اقلدة المهتدين بانوار التبصرة، وأقبل بقلوب
الراشدين قبل التبيه والتذكرة، وأعلن بعصم محبته علق النفوس التوبة
المتطهرة، والصلاة على محمد نبيه المبتعث بالحجة الفراء المبصرة، والدعوة
الظاهرة المظهرة، والسنة الواضحة النيرة، وعلى آله الطيبين الطاهرين،
وصحابته المختصة المؤثرة، والرضا عن الامم المعصوم، المهدي المعلوم، القائم
بأمر الله تعالى على رغم الفرق الجاحدة المنكرة، المؤيد في رفع أسباب
الشنآن، والحماية عن ترعات الشيطان، بمواد المعونة المنهضة المقدرة.
وهذا كتابنا إليكم- عرفكم الله من عوارف نعمه أفضل ما تتعرفون،
وسقاكم من معين حكيمته ما لاتصدعون عنه ولا تتزفون، وأولاكم من رحمته

ما تحافظون على شكره وتعكفون، وجعل لكم بالايمان والعمل الصالح ودا
لاتصدفون عن رعايته، وحفظ غايته، ولا تصرفون -من حضرة مراکش-
حرسها الله- ونحن نشكره سبحانه أن جعل هذا الامر المبارك قطب المصالح،
وملتقى الفواتح، ومرتقى المطامح، فالخيرات بمحيطة، محصورة، والمسرات
على عمدة بسيطة، مقصورة، والقوى في خدمة مقاصده معضودة منصورة،
وما تجريه الاقدار، ويأتي به الليل والنهار، فإلى تمكينه يستبق، وعن عجائب
مكنونه ينطق.

وقد كان في الامر الذي عرفناكم بثلجه، وأطلعناكم على ساره ومبهجه، ما
اجتليتموه من مستوضح الفتح ومجتلاه، ووعيتم من معجزاته ما أورده الحق
وتلاه، ورأى به الكافة أن عدو هذا الامر السعيد تولى ما تولاه، وتلقى سعيه
شره وتصلاه، واستمر البحث بعد ذلك على أوليته، وأشرف الفحص على
يقين المطلب وجليته، وبكون ذلك على المستطير من مخباه، المستدير على
مسقطه ومكباه، إلى جانب الموحدين انتسابه، وعليه لا عليهم سعيه واكتسابه،
نشأت لهم بين الخجل والوجل حالة التناصح والتعاتب، ووحشة التباحث

والتطالب. وإن كانت موداتهم الوثقة موصولة الحبال، مبتولة الفلال، مجبولة على الالتحام والاتصال، لها الوفاء والصفاء، والقديم الذي لا يلم به الدروس والعفاء، فدعت هواديههم فما تطال، ومضت سوابقهم فما يرام إدراكها ولا يحاول، وملاً الزمان حديث فخرهم فهو المردد المتداول، فحبهم لهذا الامر وأهله مكين الاستحكام، ثابت القضايا والاحكام، منشور على صدور الليالي ووجوه الايام، وإن عاج عن سنة إخلاصهم عاج، وهاج عزمهم عن حماية أمرهم هائج، ولوا الخائن من وجهته لفوره، وأسلموا الحائر بمرديات جوره، وتميز كل بمقامه وطوره، ذلك مما يسرون له من طهارة التمحيص والتلخيص، وخصوا به من أثر الايثار والتخصيص.

ولما عمرت باذكار الموعظة محاضرتهم، وخطرت على مجاري التنبيه خواطرتهم، ونورت بأبصار التذكير بصائرهم، وأجري النعت فيما درج عليه دارجهم وصار إليه صائرهم، وأتى البيان على ذكر هذا الامر العظيم شرحا وتفصيلا، وجمعت سوابقه ولواحقه في معرض التعوين جمعا وتحصيلا، ووصل القول في تنزيل الاشياء منازلها توصيلا، وبدت مقامات الامام

المهدي-رضي الله عنه- في استصحاب طائفته تقعيدها بها وتاصيلا،
حصص الحق الذي لا يدفع، وظهرت الصول التي يبني عليها ويرفع،
وترددت المخاطبات والعبارات فيما يفيد من ذلك وينفع، والموحدون -أكرمهم
الله- خلال ذلك في اعتراف دائم، وإنصاف لازم واستعطاف مائل بمثابة
الخضوع قائم، والايام تمر يوم بعد يوم، والاقوال تتوجه في عتب ولوم، والكل
يعرض في مواقف التوبة ناس بعد ناس وقوم بعد قوم. وبعد ازمة متطاولة،
 واجتماعات متواصلة، أردنا مباشرة احوالهم، وسماع اقوالهم، فاستحضر
شيوخهم وأعيانهم وطلبتهم وعمالهم في محفل التقت على الصدق أطرافه،
واحتوى على مقاصد الحق اشتماله واتفافه، وجرت على أهل التقدم والسبق
نعوته واوصافه. فعند انبعاث الموعظة إلى الجمع وعرض أحوالهم وأقوالهم
بين البصر والسمع، تصعدت زفرتهم من الذكرى وفاضت أعينهم من الدمع،
وكلما أعيد عليهم خطاب، او توجه إليهم عتاب، أو التمس منهم على فصل من
الفصول المقررة جواب، تضالت أشخاصهم خجلا، وابتغوا الى جانب المغفرة
حولا، فمن اصوات مرفوعة بالمتاب، ومن عبارات دائمة الانهمال والانسكاب،

ومن تطارح على جهة الصفح والاعتاب، واستعادة من أسباب الشك
والارتياب، حتى تمثلت صور الاخلاص في الابشار، وتحلى صفاء الضمائر
في قرائن الاحوال والاثار.

وأوقع الله عند ذلك في النفوس ان الذي يتطرق به القول إلى بعض،
ويفضي بقوم في قوم إلى الكراهية والبغض، من يتخلل قبائلهم من مشى
بنميمة، وساع في ذميمة، ومتقلب من صور الاعتياب في كل معقوفة منقومة.
ولما في ذميمة، ومتقلب من صور الاعتياب في كل معقوفة منقومة. ولما بين
لهم ذلك من وجوه تحققه، وأطلعوا على موجبات تسببه وتطرقه، وعرفوا بما
في الازهان فيه من اتصالهم به وتعلقه، اقرؤا بالصدق فيه أتم إقرار،
واستعادوا له ولما تقدمه كل استقالة واستغفار. فامروا بتجديد المتاب
وتحقيقه، وحضوا على توكيد الخلوص وتوثيقه، وحذروا من ملابسة من
يسعى على اتصالهم واجتماعهم بقطعه وتفريقه، فعاهدوا الله تعالى على
ذلك أوثق معاهدة، وشوهدت دلائل اليقين وإمارة الصدق منهم أوضح
مشاهدة وفتنزلت ملائكة الرحمة من آفاقها، وفاض على القلوب فيض

حنانها وإشفاقها، وعممت المغفرة بفضل الله على أتم وجوه تعميما وإطلاقها،
وملئت الجوانح تفريجا وتبشيرا، ووطئت الأحوال تسهيلا وتيسيرا، وانجابت
عن النفوس ظلم التوحش، وانحلت عن العقول عقل الدهش.

وأمر الموحدون عن آخرهم بالتصالح والتغافر، واستئناف أحوال التعاون
والتظافر، وقطع أسباب التباعد والتنافر، فاجتمعوا لذلك أفضل اجتماع،
وتمتعوا من نعماء باكرم متاع، واستعيدت أحوال توأخيهم وتصافيتهم باحسن
استعادة واسترجاع، وصارت أيامهم أيام مصافحة بإيمان، ومفاتيح بإحسان،
وتأسيس بنيتان على تقوى الله ورضوان.

وأعلمناكم-وفقكم الله- بهذه الرحمة، والمسرة العظمى، لتأخذوا من ذلك
بأوفر الحظوظ والاقسام، وتكونوا على ثلج هذا التعريف والاعلام، وتشكروا
الله على طوله وإنعامه فهو أهل الطول ولانعام، وتبادروا الى انتهاز هذا الباب
المفتوح مبادرة الاغتنام، وتقتضوا في التغافر والتصافح وصلة الارحام، بهذه
الآداب الكرام، وتفعلوا مثل ما فعله إخوانكم الموحدون على قصد الاعتقاد له
والالتزام. جعلنا الله وإياكم من عباده الشاكرين لما أولاه، العاملين بأحق

مقصوده وأولاه، بمنه وفضله، لأرب سواه. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله
وبركاته.

وكتب في الخامس لجمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وخمسائة.

الرسالة الثانية:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة والأشياخ

والأعيان والكافة بسبته- وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه- سلام عليكم

ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على تمكين أسباب الاجتماع والانتظام، وتقريب

مدارك الانتفاع بأعطياته، والصلاة على محمد نبيه المنبعث رحمة للانام،

وعصمة لاولي التمسك والاعتصام، وعلى آله وصحبه الكرام، الجارين في

إنتهار خيراته وإحراز بركاته إلى أبعد غايات الاغتنام، وأقصى نهايات

الالتزام، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، قبلة الاهتداء والالتزام،

وخاتمة الختم النبوي في الكمال والتمام، وموضع البشرى على آخر الزمان

وعقبى الايام.

وهذا كتابنا إليكم- كتب الله لكم من تجدد الانعام، وتوفر الحظوظ

المسعدة والاقسام، ما ينور بصائرکم في الاعتناء والاهتمام، ويصحب أوائلکم

وأواخرکم من الافتتاح وسعادة الاختتام -من رباط الفتح- عمره الله- وفي

سبيل الله ما يربط بلروابط هذا الامر العزيز ويعقد، وعلى طاعته وتقواه ما ينظم لرضاه ويسرد، ولا مستعان سواه فهو الذي يعين بفضله ويؤيد .

وقد تقدم إليكم -وصل الله إكرامكم، ووالى تعريفكم بالمسار وإعلامكم -

ما كان من إجماع الموحدين وأصفيائهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام شروطها المذكورة وأن ذلك لم يكن له عندنا قصد متقدم، ولا عهد متوهم،

لكنه أمر أراد الله فآتمه، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمه، ونرجو أن

الخيرة التامة في انعقاده، والسعادة العامة في التزامه واعتقاده. ولما استوى

بفضل الله بنيانه المرصوص، وثبت على الصدق والثلج حديثه المنصوص،

وتعين في سوابقه ولواحقه الصفاء والخلوص، وكان من هذه العشائر الهلالية

والوفود المشرقية إياها الميمون، وتأهل لها بتوفيق الله وتسديده خيره الموعود

ونصره المضمون، ورأت أن الذي أملت في معنى الاختصاص بمحمد -وفقه

الله- قد تأنى في درج العموم، وصار بمجمع الآمال في قرارة البيوت واللزم،

رغبت رغبة مستأنفة في إستصحاب أحد أخوته-وفقهم الله- على التعيين،

وبينت ما في ذلك من جمع الكلمة وضم أشتات المصالح المقدمة بآتم وجوه

التبيين، وأصفت على ذلك يقطع أسباب الاختلاف، ويفتح أبواب الائتلاف، ويعمر جوانب تلك الأرجاء والأكفاف، بأحوال الدعة والسكون.

واتصل ذلك بشيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم-وفق الله جميعهم- فتابينوا فيه من وجوه المنافع، ومقاصد المصالح والجوامع، ما اعتقدوا وجوب سؤاله. ورأوا قبل الخير في بادي استقباله، واتفقوا على أن يصحبهم المرغوب، في استصحابه لدفع دواعي الشغوب، وإجراء الأمر في تفاصيله وحمله هناك على هذا القانون المبارك والاسلوب، وانبعثت خواطر أهل البلاد كلها إلى التماس مثل هذا المسؤول المرغوب، وأملوا ترتيب آمالهم للدين والدنيا على هذا الترتيب، فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضر من أهل حواضرها وبواديها أن يكون لهم من هذا الأمر المتجرد، والشأن المسعد، حظ يفوزون بنعماءه، ويحوزون منه أزكى قسمة وأنماه، بأن يستصحبوا من الاخوة المذكورين من يكون اليه استنادهم، ويدور عليه إجتماعهم وإعتمادهم، ويتمكن به استعانتهم واعتضادهم، ويتم بالاتفاق معه أملهم من رفع الخلاف ومرادهم. فتلقى ذلك من قبول الموحدين وتبنيه، وتقرر في نفوس جميعهم وتمكنه، ما

أراهم طلبه فرضا، وكونه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وكانت
المذاكرة فيه فتبين وجه المصلحة في تلقيه، وسبيل السداد في تيسيره وتأتيه.
واشتغل بالنظر فيما يصلح بذلك، والاستعداد بما هنا وهناك، وكانت
بعض أيام مذاكرة من الشيوخ والطلبة والعمال ومن حضر ذلك الغرب الوسط
في ترتيبه وتهذيبه، وضمه إلى قوانين النظر السديد وأساليبه، فرأوا أن الذي
يعقد أمره بمعاهد السداد، ويبنى بنيانه على قواعد الاتصال والاطراد،
ويقضى له من الاغتباط ما تقدم ذكره بأوفر حظوظ التوفيق والاسعاد، أن
يكون في وسطه من الاخوة المذكورين من تسكن إليه قلوبهم، ويتأتى به
مسؤولهم من الاتفاق ومطلوبهم، ويستريغون بالاجماع عليه ما كان يغريهم، من
التنازع والتهالك ويغويهم، وأن يكون أمر غمارة وما اتصل بهم من عمل سبته
وجهاتها راجعا إلى العمل المذكور، مرتبطا به في سائر الشؤون والامور. وكان
في ذلك من إعادة القول وتكريره، وتفصيل الذكر وتفسيره، ما أظهر سبيله
على مظاهر البيان، وأبرز مكنون الاستقامة به العيان.

ثم تذاكر الطلبة العاملون على سبته وأعمالها — وفقهم الله — مع إخوانهم في معنى البحر ومجازه، واتساع النظر في مراسيه وأحوازه، وكونه رابطا بين العدوتين، جامعا إلى إصلاح الجهتين، عائدا راجعا، وانه إذا أبقي معه النظر في أمر غمارة وسائر القبائل التي الى سبته وطنجة والجزيرتين ومالقة وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط، وتجتمع اليه هذا النظر المؤيد البسيط، وينزاح به عن أشغاله المهمة التقصير والتفريط، وأنه الآن فيما يرام لهذه الغزوة الكبرى، من إنشاء الاسطول — عمره الله — في جميع البلاد الصالحة للانشاء، وغزو أعداء الله برا وبحرا، في كافة الانحاء والارجاء، أحق بالعناية والاهتبال، وأسبق إلى التماس الارتباط والاتصال، وأنه إن كان هنالك من الاخوة المذكورين من يساعد ويساعد، ويعاضد في ذات الله ويعاضد، ويستدعي ما يجب استدعائه فلا يكابر في ذلك ولا يجاحد، اتصلت المواد، وانفصلت القواطع الحواد، وتمكن التصافي من خدمته والتواد، وارتبط البحر بالبر، فكانت المعاملة فيه بين العاملين عليها بما يجب من المساعدة والبر.

وأنت هذه الأمور -وفقكم الله- أمرا بعد أمر، على غير قصد منا ولا ذكر،

بل على وجوه يعلم بالضرورة انها نشأت لأحيائها، وظهرت دون مقدمة

لأعيانها . ولما رأينا اتفاق الشيوخ والطلبة والعمال -وفق الله جميعهم- على

ترتيب هذه الأمور، وإصفاقهم على مافيه من صلاح الجمهور، وظهور أنوار

المهدي -رضي الله عنه- في مشارق الوضوح والظهور، استخرنا الله تعالى

في إنفاذ ما رأوه، ورجونا بمشيئة الله التوفيق لهم في تيسير ما أملوه ونووه،

وتذاكرنا معهم في ان الذي تكمل به هذه الارادة، وترجى بالتعاون عليه البركة

والسعادة، أن يكون مع كل واحد من المذكورين من ينتهي إليه الاستحسان،

ويقوم على خيره وفضله الجلاء والبيان، فعين لهم من كبار الطلبة والحفاظ

وأعيان الفقهاء والقضاة، ونخبة الأمناء والثقة، وخيار الانجاد من الغزاة، من

يعينهم في جمع العساكر وتمييز القبائل وتأليف الكتائب والامر بالمعروف

والنهي عن المنكر في كافة المقاصد والمذاهب، وأخذ الناس بالتفقه في دينهم

وتعلم مايتعين تعلمه باللازم الواجب، والعدل بين الاحكام، والقضاء بكتاب الله

وسنة رسوله وإجماع الأمة على الحاضر والعام، واستخراج ما الله من وجوهه

السائغة الطيبة على غاية مستطاعهم من الترتيب والاحكام، ومياسرة
الجمهور، في سائر الأمور، بما يجري على مقتضيات الايمان والاسلام.
وانتخبت لكل جهة من الجهات المذكورة من قدماء الموحدين وأوليائهم بقدر ما
احتيج إليه، فاشتركت في هذا الخير قبائلهم، وتقدمت إلى أوائله أوائلهم،
واستقبل منه الموحدون كافة ما يواليهم بفضل الله ويواصلهم، واستقامت هذه
الاحوال بحمد الله على ما أمل من استقامتها، واعتمد من إظهارها على
قواعد الحق وإقامتها.

وأعلمناكم -وفقكم الله- بها على الاجمال لتكونوا بسماع أنبائها، والوقوف
على جلائها، كالشاهدين لايعازها وإمضائها، والمشاركين في استحسانها
وارتضائها. وليس لنا في ذلك كله إلا بما يجري بطاعة الله ورسوله في تيسير
آمال الموحدين وموافقتهم، ورغبتهم فيما يشيرون إليه بفضلهم وسابقتهم.
والله يجعلنا وإياكم من شكر الاله إسرارا وإعلانا، واستدام بفضله أعوانا
وإخوانا، بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الثالثة:

رسالة في ولاية الامير أبي عبد الله بن الخليفة:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعاونته - إلى الطلبة الذين

بسببته وطنجة- حرسهما الله- وجميع من بهما من الموحدين والاشياخ

والاعيان والخاصة والعامة- وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماء- سلام

عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على إعلاء دينه وتمكينه، وإجراء هذا الامر العزيز

على أفضل أساليبه وقرائنه، وإمضاء أراء أهل الحق في صوب إسعاده

وتيمينه، والصلاة على محمد نبيه المصطفى وأمينه، ومبلغ رسالته على أكمل

حالاته من بيانه الباهر وتبيينه، وعلى آله وصحبه الذين ألقوا صفقة إيمانهم

بيمينه، وولوا عهد إيمانهم من ارتضوه لإمامة مفروضه ومسنونه، والرضا عن

الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى في كافة أحواله

وشؤونه، العامل بإظهاره، وبث أنواره، على معارج آياته وبراهينه، المؤيد بأخذ الغاية، وحوز النهاية، بصفات تخصيصه وعلامات تعيينه.

وهذا كتابنا اليكم-كتبكم الله ممن اتخذ عند الرحمن عهدا، واستمد في

صلة أمره واستدامة خيره عزما صادقا وجدا، واستعد من الباقيات

الصالحات بما هو خير ثوابا وخير ردا، واستتجد للوفاء بأمانته، والصفاء في

حفظ العهد وصيانتها، حبا خالصا وودا-من رباط الفتح- عمره الله- وفي

كنف الله ورعايته من يصيخ لنبأت الخير أسماعه، ويربط بمعاهد الصلاح

إصفاقه وإجماعه، ويمضي على مناهج الفوز والفلاح عزمه وإزماعه، ولله

بكم، معشر المخاطبين- أكرمكم الله- عناية وصلت بحبله المتين، حبالكم،

ومكنت في أمره المكين، آمالككم، وأكرمت بالطفاف الرحمة، في أكناف النعمة،

إقراركم وإحلالكم، وأرتكم ان العاقبة الحسنة باتباع هذه الواضحة البينة

حالككم ومنالككم. فأنتم برعاية الله وكلاءته في جوانب الامنة راتعونو وإلى

عواقب الخير راجعون، تستدرون أخلاف النعم استدراارا، وتستمتطرون من

بركات هذا الامر المبارك سماء مدرارا، وتجتلون من مشارق آياته وطوابع

بيناته أضواء باهرة وأنوارا . وحق من منح من حظوظ النعم ما منحتهم، وأمسى وأصبح فيما أمسيتم فيه من الخيرات وأصبحتم، أن يسعى بمبلغ جهده في تقييدها، ويحرص بالتزام الشكر على مزيدها، ويستنفذ الوسع في طلب أسباب تقريرها وتأكيدها، وينظر في استدامة نعيمها، والاستقامة على مقيمها، لقريب أوقاتها وبعيدها .

ولما كنتم —أكرمكم الله— ممن اعتصم في هذا الامر العظيم بحبله وعروته، واقتدى بوجوب الاتباع بأسرته الهادية وقدوته، رأينا أن نعلمكم بما عقده إخوانكم الموحدون على تقوى من الله ورضوان، والتزموه بآتم ارتضاء واستحسان، وابتدروه ولهم التوفيق والاصابة على يسر وإمكان، وذلكم ان كثيرا من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها، من أشياخ الانظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر آخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها . وكانت هذه العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل إقليمها، وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انتزاحهم، ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين،

ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله
وصولهم في هذه الوفادة، للاخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضى
الآمال والارادة، صرحوا لاول لقائهم بما أضمره، وأبدوا سرهم المكنون
وأظهروه، وأعلموا أن محمدا -وفقه الله- هو الذي ارتضوه لحمل عبثهم
وتخيره، ورغبوا في تقديمه على بلادهم، وإنفاذه معهم على قصده في توليته
ومرادهم. وكان استدعاؤنا لهم في هذه الوجهة المذكورة، والحركة المبرورة،
لأمر قصدت فيها مذاكرتهم، ونويت بها مباشرتهم، لم تكن مما ذكره في
ورد ولا صدر، ولا كان ما سايره القدر جاريا معها في نظر. وكان التماسهم
للجواب على سؤالهم، وبغاية اقتضائهم ونهاية استعجالهم، يتردد ذكره في
صدور أقوالهم، ويتأزر أمره بشواهد عباراتهم وأحوالهم، ونحن بين ذلك كله
على غير قصد ننويه، وما نظهره منه مثل الذي نبطنه ونطويه.
ولما إحتلنا جميعا هذا الرباط الميمون، واستلنا بفضل الله خيره المعهود
ونصره المضمون، وكان الوفد المذكور بمدرجة الاياب، ومرقب الالتفات
والارتقاب، تاكد اقتضاؤهم للجواب، وتمكن حديثهم في معنى التقدم المذكور

والاستصحاب، فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضوع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ونتذكر معهم في ذلك الامر المسئول، ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين بآتم وجوه الالتقاء والتوصيل، فكان ذلك على ما قصد، وذو كروا في الامر على ما توخي فيه واعتمد، وعرفوا بأن ذلك ليس مما بني عليه ولا مما اعتقد، فثارت منهم السواكن، وغلبت على الظواهر والبواطن، وعوين من أحوالهم لذكر فراق المذكور أغرب ما يعاين. وتقدمهم الشيخ الاجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى -أعزه الله بتقواه- فقال: هذا أمر نحن بتقديمه، وأعلم بوجوبه ولزومه، وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه، فهو مختارنا للدين والدنيا، ومسؤولنا المأمول للحياطة والرعايا. وأتبع ذلك من القول في معناه ما قصد أن يمكنه، وأراد أن يوضح به عزمه عليه ويبينه. وقال أكثر الحاضرين من الاشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمر في ضمائر أكثرنا معقود، وفي نفوس جمهورنا موجود،

وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد واتفقت الكلمة من جميعهم أن في ذلك من تجديد أمر الامام المهدي -رضي الله عنه- وتقويته، وبسط شأنه المعظم وتسويته، ما لا يجوز تأخير عن ذلك المقام، ولا يحل الخلو عن التقليد له والالتزام، وأن فيه من إبقاء الامر في نصابه، وإتيان الحق من أبوابه، واتباع الدين من أخلائه وأحبابه، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتياحه، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ويضم شمل المؤمنين بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابهم، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم.

فاعلموا -وفقكم الله- بأن ذلك ليس له في نفوسنا عقد سابق، ولا نظر لاحق، ولا طرق الضمير من أنبائه طارق. وإنما كان هذا القصد إلى ذكر السؤال المتقدم الذكر، والكلام فيه على مقتضيات هذا الأمر. وانقضى مجلس اليوم، ولا عزم على وجه من وجوه التأتي والتسبيب. واجتمع الشيخ الاجل أبو حفص المذكور ومن تقدم ذكره من الطلبة والعمال بجميع من هنا من أشياخ الموحدين وأعيانهم، وقدموا أهل النظر في أمرهم ذلك وشأنهم،

وعرفوهم بما كان من قولهم فيه وبيانهم. فاجتمع الملاء من آخره. وظهر الامر العجب لشاهده وحاضره، وانتثر القول في ماكن الوجوب وتظاهره. وأصفق الموحدون وجميع من معهم على تجميل العهد فيه وتقلده، وأعربوا عما اعتقدوا به من تقوي الأمر وتأيينه، ورد إلى أصله ومستنده، وصار الجميع منهم في حد من موالة الاقتضاء، على أتم وجوه الاختيار والارتضاء، لم يتقدم فيه عهد، ولا كان من مضاء آمالهم فيه بد.

ولما رأينا اتفاق كلمتهم على ربط هذا الامر وعقده، وإجماع جمهورهم على ما فيه من نصر الدين وعضده، استخرنا الله تعالى في الاتفاق معهم على إنفاذه، وسألنا لهم السعادة الدائمة في بيعتهم هذه، ورجي لهم من الله تعالى إجراء ذلك على ما عودهم من الاصابة في المقاصد، والنجاح في طلب المصالح والمراشد. وانعقدت البيعة المذكورة باتفاق جميعنا على الشمل والعموم، وقامت بأمر الله ورسوله في التفويض والتسليم، وأتى الامر فيها على أوفى شروط التكميل والتتميم، وابتدأها الشيخ الاجل أبو حفص المذكور بيميناه، قصدا الى اعتقادها على أكرم وجه وأسناه، وتتابع الاشياخ والطلبة

بعده على درجاتهم، وسرى النعيم بها في أبشارهم ومنحاتهم، وباشرها من
حضرها من القبائل الموحيدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلا بعد قبيل، على
أتم وجه وأنهج سبيل، وظهر من تألف القلوب على ذلك وتعاضدها، واجتماع
النفوس ونواردها وترايط الافئدة وتعاقدتها، ما ملك جوانح الكافة غبطة
وأوسع أمر الموحيدين بفضل الله عليهم مدا وبسطة، وتم ذلك بعون الله على
أوثق مبانيه، وأطلق معانيه. والله يعرفكم أجمعين، وسائر إخوانكم من
المؤمنين، بركة هذا الاجتماع والاجماع، ويوجد لكم ثمرة النعيم به والامتع،
وينهضكم في فروض الدين بواجب الاقتداء والاتباع، بمنه. والسلام.

الرسالة الرابعة:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين
بتلمسان- أدام الله كرامتهم بتقواه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إليكم الله لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه،
ونصلي على محمد نبيه ورسوله. والحمد لله الذي أحل هذا الأمر العزيز من
عنايته بالمحل الأعلى، وخصه بدعاء الخلق إلى ركوب السبيل الواضحة
والطريقة المثلى، وأقام كفته وحملته لاذكار القلوب الساهية، وتببيه النفوس
اللاهية، بسور من آياته تتلى، وعبر من مجتلياته تعرض في أوقات الغفلة
وتجلى، وخطم بخزائمه حدوده، وضم إلى حصر قيوده، من تبسط على
الاسترسال وتدلى، واستفاء بحكمته وبيانه، وحالي شده وليانه، من أعرض
وقاء بجانبه وتولى، وأصحابه من تمشية المقاصد، وتصفية المصادر والموارد،
بما يكون له عند كل معتمد، وفي كل مقتصد، رداء مكينا وكفلا، وأودعه من
عطفات الرضوان، ونفحات الرحمة والغفران، ما يضع عن القلوب من متوقع

مؤبقات الذنوب أصرا شديدا وثقلا، والصلاة عليه وسلم- بين الحق والباطل
حجزا مضروبا وفصلا، وأتم به النعمة، وأعم به الرحمة، إحسانا عمرا
وعطاء جزلا، وتعريفا أنه الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء رحمة وعلما
وفضلا، وعلى آله وصحبه الذين تبوؤوا بالهجرة والنصرة محلا عاليا ونزلا،
وكانوا لما تحف لهم من الرضا، والثواب المقتضى، مستحقا وأهلا، والرضا عن
الامام المعصوم، المهدي المعلوم، مطلع أنواره، ومتبع آثاره، يقروها فرعا فرعا
وأصلا أصلا، ويقرها على مثل مثلا، وعلى شكل شكلا، القائم بأمر الله وقد
تغشت البسيطة ضلالا منطبقا وجهلا، وأشریت المنفوس من خبط العشواء،
وغلية الاهواء، إمراجا وخبلا، واعتاضت برفع العلم وطموس الحق من رقي
هويا ومن علو سفلا، فانتحتة البشرى التي لا تتوقف، ووعد الوحي الذي لا
يخلف، انه يملؤها قسطا وعدلا، ويجري في أمره إلى غاية هي ختم الوجود،
وانقراض أمد الدنيا المحدود، مخصوصا من التأييد، وسنيات التمكين
والتمهيد، بالا خلق منها فالخلق والاولى فالاولى.

فإننا كتبناه إليكم- كتبكم الله ممن أحسن لقبول ما يعتمد، وتلقي ما يرد،
استعداد، وأجاد لأعز المطالب، وأفضل المكاسب، انتجاعه وارتياحه، وتدريب
على عمل البر فألفه واعتاده، وارتاح لوارد التذكير، ووافد التبصير، فقوم به
معوجه وثقف منآده -من حضرة مراکش -حرسها الله- ونحن نحمد الله
على دينه الذي رفع علمه، وجمع معاقده وعصمه، وأمد له ببركة هذا الامر
العزیز من متین العقود، ومکین العهود، مما سراه وألحمه، فلا خلال -
والحمد لله- يعرف مبرمه، ولا نقض يعتور محكمه، ولا مائل عن مدرجه، عاج
عن منهجه، إلا صادرة التعديل وصدمة، فمدعو أقلع وأقصر، وعم كشف له
الغطاء فأبصر وتبصر، ومريح شمر عن ساعد الجد وحسر، وراكب ردع
لحاجه، وممتد في غلواء تنكبه عن السبيل وعياجه، ومنطو على دخيل داء قد
نقل بعلاجه، كل يوفي قسطه، ويمضي عليه من ثواب أو عقاب ما أثبتته
الكتاب وخطه، وحدود له تتعدى، وحقوق لا يتجاوز بها الأمد المشروح والمدى،
وكل بما أسر من سريرة، أو أحتقب من صغيرة وكبيرة، ملبس ومردى، لا
هوادة يحتمل، ولا وسيلة سوى التقوى يدلي بها ويدل، ولا قربي بغير العمل

الصالح توصل، وتبل ميزان القسط عدل وأمال، ورجح وأشال، وكال لكل ما
أكتال. والله بعد نفحات من رحمته يصيب بها من عباده من استفتحها، ويصل
أبواب التوصل إليها من قرعها بالمتاب واستفتحها، ويصل أبواب التوصل إليها
من قرعها بالمتاب واستفتحها، ويستقيل بها عثرات الزلة، وفترات الغفلة، ومن
أعتق نفسه من ملكة الهوى وسرحها، أولئك الذين سبقت لهم منا الحسنى،
وانقادوا بزمام العقل فما استمالت لهم دواعي النفس طرفا ولا استهوت منهم
أذنا، وكلما ذهبت سنة بأجفانهم، أو عرض عارض في ميدانهم، قرعوا عليه
من ندم سنا، واستشعروا لما أصابهم أسفا وحزنا، ثم تابوا إلى الفيئة، وتعلقوا
بأهداب تلك الحالة الاولى وتلك الهيئة، وكانوا من التطلب لتلك الاذواق
المستملاة، والمناظرة الحسنة المجتلاة، وكانوا من التطلب لتلك الاذواق
المستملاة، والمناظرة الحسنة المجتلاة، بين ذهاب وجيئة. والله يلهم كلا إلى ما
قصد به مما هو حظه الاجمع، وركنه الاشد الامنع، وعلق قضيته التي تهمل
ولا تضيع.

وقد كنا —أعزكم الله بتقواه— عند ما أنسنا من فترات الاعمال، وحوول
الاحوال، والاستئناس في أمر الله بالانهماك والانهمال، والتدرج في مناقل
التغيير بما لان له مركب الاستهانة والاستسهال، رأينا ما لايسع الاحتمال فيه،
ولا يبرأ من درك التحرج في أرجاء تداركه وتلافيه، ولا يؤدي حق الاستحفاظ
والاسترعاء بإقرار ما يبطله الحق وينفيه، وإن المماشة في ذلك وهن لا يقبله
الله في دينه ولا يرتضيه، وإذا نصب الله معالم الهدى، ولم يخلق الامة عبثا
ولا تركهم سدى، بل جعل كلا بما وجه اليه من أمر ونهي مكلفا متعبدا، وأقام
لهم فيما يأتونه ويذرونه رسما لا يحيل ولا يستحيل مذكلا بسلوكه معبدا، فما
هم والتخلي مع الاهواء ومخالفة الافئدة الهوى والرضا لهم بما رضوا من
الاقامة بدار المضیعة والندا . وأمر الله لايدع، وحكمه يكف ويفرع، وله —جل
جلاله— قومة بدينه يزع بهم ما يزع، يسوون ويعدلون، ويقضون بالحق وبه
يعدلون، وما زلنا نعرض الذكرى بينة، ونهدي الكلمة لينة، وندعوا إلى سبيل
الله بمقتضى المدعاة الواجبة المتعينة، وننتظر بالمسوف ارعواء عن الغي،
وانشاء عن مدارج الملل واللي، وتحولا من القلب الميت إلى القلب الحي،

النفوس بزمَامِ هواها منقادَة، وعلى ما ألفته قدما من أسوء عادة، تتحط في
شعب حياحها، وتطفئ وقد أرخى لها الاغترار من شكيم مراحها، وتترك
لايثار الفساد جانب صلاحها، وتصم أسماعها وقد قرعتها بما شاء التذكير
أقوال إنصاحها، فتقضى أمر الله أن تقوم بحقه، واستدعى عهده الوفاء به
في خلقه، وحمل هذه السائمة الهائمة على سبل الاعتدال وطرقه، وأبطأها
مركب الطاعة على ما لا بد فيه من عنف الاخذ أو رفقه، فتحركت بواعث
الاعتزام، واستقلت باستعانة الله دواعي الاستغرام، وأخلص له —جل جلاله—
مجرد القصد والالمام، واستوبق بما استقبل وتوجيه ما أمل تجديد مراسم
الايمان ومعالم الاسلام، وان تورد موارد الشرع صافية النطاق رزق الجمام.
ولما انقسم الناس في المراد من إصلاح فسادهم وتقويم منآدهم إلى من
استأثر بالمشاهدة عيانه، وإلى من بعد من المباشرة مكانه، وكان لكل من
مساواة الحظ، وتقسم التفات اللحظ، ما يتوجه اليه بيانه، ويشيه إلى ما
يقصده من هذا الغرض وينتحيه زمام التناول وعنانه، أودعت أغراض هذا
المقصد الكريم، ومناجي الدعاء إلى السراط المستقيم، الكتب الواصلة إليكم

وإلى سواهم من أهل الاقطار بما تضمنته من الاحوال، وضرب الاشكال والامثال، وتبين متروك الحرام ومأتى الحلال، وتنزيل القضايا الشرعية منازلها من الاحكام والاعمال، وتعريف مواقع الثواب لاهل الثواب، ومواقع النكال لاهل النكال، بما استوفى فيه الاداء، وتقصى الابلاغ والانهاء، ووقف عند غايته الركض والاجراء، وخفت بذلك عن كاهل الامانة وتقلد أمر الديانة والاثقال والاعياء، وأقيمت الحجة، وأوضحت المحجة، فلا متردم من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء، أو يحاول فيه التعقب الاستفحاص والاستقصاء.

ولما قضيت تلك الوضيفة بحالها، وسقطت عهدة احتمالها، أقبلنا الاشتغال على من إلينا وحوالينا من الموحدين وجميع القبائل لنأخذهم بماخذ ذلكم التعديل، ونحملهم على نهج تلكم السبيل، ونساوي بين من بعد ودنا في الفعل والقيـل، ونمضي مسطور تلكم الاحكام على مساوقة الفرض لها والتنزيل، ونعدم بسيف الحق آثار أهل التغيير والتبديل. ولما حللنا هذه الحضرة- حرسها الله- وهذا الفرض المبارك يتمكن مع مطالعة الاحوال

سببه، ويتقعد مذهبه، ويتطور في كيفية مآله، وموقف مجاله، نسبه ونسبه،
ابتدأنا بالنظر في أحوال الموحدين وإحضار الجميع منهم بهذه الحضرة-
عمرها الله- واستوفدناهم قبيلًا قبيلًا شعبًا شعبًا وقد تأكد العزم على القيام
بأمر الله وإعادته على إدلاله وإحياء دارسه وإقامة عموده ونفي الخبث عن
أرجائه وتصفيته من الشرب وأنشائه خلقًا جديدًا ولا يكون ذلك إلا بإخلاص
المقصد وإظهار الفعل وإمضاء الحكم وترك التلفت إلى الأقوال ووسائل
اللسنة فشد ما ارتهنت بما لا وفاء عنده ولا ثمرة له. والتحق بهذا الأصل
استدعاء جمل من كل قبيل من المصامدة وغيرهم ليقع العمل في الجميع
وتصفى الموارد وترحض الأدناس، إذ كان الفساد قد خالط النفوس ومازج
القلوب ووقع به الاستئناس، وألفته الأهواء وحجت المناصحة فيه الاسماع
ونسى كل ربه فأنساه نفسه وسقط رعي الحرمان وتتوسيت الذمم لاهلها
والسوابق لأربابها. وفي أثناء هذا الاستدعاء أقبل أهل التوحيد على الاشتغال
بنفوسهم والعكوف على قراءة توحيدهم وملازمة وظائفهم وافصحت لهم
نصب الحال عن أمور من مثلها يأخذ الفطن حرزه ويستحضر إشفاقه ويتوقع

يومه وعندها ويتراءى الناظر مكان سقطاته، وموضع فرطاته، وتتخشى له منسيات ذكراته.

ولم تزل القبائل ترد أفواجا وتقد أقواما، وخلال التلوم باكتمالهم أخذوا بالقراءة والتعلم ومدارسة التوحيد وتحفظ ما تقام الصلاة به من القرآن. وكان لهذا الأخذ من كل طبقة وصنف عمل علت به الاصوات، وعظم الاثر وقد ظهر من مبادي هذه المنازع وانفراض هذه المقدمات، ما شخّصت له الابصار، وجد فيه الاعتبار، وخامر منه النفوس الخوف المقلق والحدار، وسرى في قلوب الخاصة والعامة الايحاس لأمر من أمور الله والاستشعار، وتوقع ظهور آية تفرق بين المحقق والمبطل، وتميز الخبيث من الطيب، وتلبس كلا رداء سريره، وجلباب طويته، وما ذاك ببعيد عمن أعرض عن الحق واتبع هواه، وأحل بعهد الذي عاهد عليه، واستبطن غير ما أظهر. ولله في هذا الامر العزيز أسرار مخبوءة، وودائع مكتومة، يمحض الله بها المؤمن، ويمحق الكافر.

ولما تكاملت أعداد الواصلين، وقد غصت بهم السبل، وعضل بهم الفضاء،

افتتح باب العمل، واستعين الله تعالى، وابتدي بتطوير الناس على طبقات

ثلاث يعرف بها كل واحد قدره، ويقف بها عند حده، ويعلم أين هو من

مضماره، وتأخره أو بداره. فالطبقة الاولى هم السابقون الاولون الذين بايعوا

الامام المهدي -رضي الله عنه- وصحبوه، وغزوا معه، وصلوا خلفه، والذين

شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها، واشتملوا ببردة شرفها، وارتقوا إلى ذروة

الحظوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يوازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو

هذه الطبقة من أمن بهذا الامر، ودخل في هذا الحزب، وانضوى إلى هذا

الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى

هلم جرا. وجرى -وفقكم الله- هذا التطوير على نظام أحكم فيه الوصف،

ورتب فيه الوضع، وروعت فيه الزلف والقرب، والمنازل المعلومة والرتب،

والتفت إلى أحوال أهل الثبوت والنكوص، ومن تقاصر عن الكمال بالحظ

المنقوص، على تحرير من النظر ووزن من العدل، عرف الناس بسيماهم،

ووقف بهم عند غاياتهم، وعلم كل مركزه، واحتل بمحطه، ووجد نفسه حيث

وضعها العمل وأهلها السعي.

(هنا انتهى أحسن فصل في هذه الرسالة.)

الرسالة الخامسة:

كتاب عبد المؤمن الى الشيخ محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش صاحب
شرق الأندلس يدعوه الى الدخول في دعوتهم وهي من انشاء الوزير أبي
جعفر بن عطية:

من أمير المؤمنين-أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الشيخ أبي عبد
الله محمد بن سعد- وفقه الله، ويسره لما يرضاه- سلام عليكم ورحمة الله
وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه
والاقدار، وإليه يرجع الامر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار، والصلاة
على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته
الأنجاد والأغوار، وخصم بحجته الكفر والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم
الكرام الأبرار، والمهاجرين والأنصار، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي

المعلوم. القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار، وتقدم الامتعاض له والانتصار.
وهذا كتابنا إليكم- كتب الله لكم نظرا يريكم المنهج، ويلفيكم الأبهج فالأبهج،
وآتاكم الله من نعمة الايمان، وعصمة الانقياد له والاذعان، ما تجدون به
اليقين والثلج-من حضرة مراکش- حرسها الله تعالى- ولا استظهار إلا بقوته
وحوله، ولا استكتار إلا من إحسانه وطوله.

ولما جعل الله الامر العظيم رحمة لخلقه، ومطية لرقيه وقرارة لاقامة
حقه، وحمل حملته الدعاء إليه، والدلالة به عليه، والترغيب في عظيم ما
عنده ونعيم ما لديه، وجعل الانذار والاعذار من فصوله المستوعبة، وأحكامه
المرتبة، ومنجاته المخلصة من الخطوب المهلكة والاحوال المعطبة، رأينا ان
نخاطبكم بكتابنا هذا أخذا بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء الى سبيله،
والتحريض على اغتنام النجاة وتحصيله، وإقامة الحجة في تبليغ القول
وتوصيله، فأجيبوا- رفعكم الله- داعي الله تسعدوا، وتمسكوا بأمر المهدي-
رضي الله عنه- في اتباع سبيله تهتدوا، واصرفوا أعنة العناية إلى النظر في
المآل، والتفكر في نواشي التغير والزوال، وتدبروا جري هذه الأمور وتصرف

هذه الاحوال، واعلموا أنه لا عزة الا بإعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال، ولا يغرنكم بالله الغرور، فالدنيا دار الغرور، وسوق المحال. وليس لكم في قبول النصيحة، وابتداء التوبة الصحيحة، والعمل بثبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة، إلا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الامنة والدعة، والكرامة المتسعة، والمكانة المرفعة، والتتعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتعة. فنحن لا نريد لكم ولا لسائر من نرجو إنابته، ونستدعي قبوله وإجابته، إلا الصلاح الاعم، والنجاح الاتم.

وتأملوا-سددكم الله- من كان بتلك الجزيرة- حرسها الله- من أعيانها، وزعماء شأنها، هل تخلص منهم إلى ما يوده، وفاز بما يدخره ويعدده، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى، واستبقى لنفسه من هذا الخير الادوم الابقى، وتتعم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقي. وأما من أخلد إلى الارض واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الامر العزيز إلى ما سواه، فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتثقل منه حادث الانتقام أخسر ما تثقل به.

وحق عليكم-وفقكم الله ويسركم لما يرضاه- أن تحسنوا الاختيار، وتصلوا

الادكار والاعتبار، وتبتدروا الابتدار. وماحق من انقطع إلى هذا الامر

الموصول الواصل، وأزمع ما يناله من خيره المحوز الحاصل، أن يناله منكم

شاغل يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرفه عن محبوبه ومودوده، فقد

كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانكم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا

الامر السعيد، ما كان. ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدوه في أمر أهل

لورقة- وفقهم الله- حين ظهر اختصاصهم، وبان إخلاصهم، وليس لذاك

وأمثاله عاقبة حمد، فالخير خير ما يقصد، والنجاة فيما ينزح عن الشر

ويبعد. وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظر موفق،

ومتاع محقق، ويجدبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق

يرشد. والله يمن عليكم بما ينجيكم، ويمكن لكم في طاعته أسباب تأميلكم

وترجيكم، بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

الرسالة السادسة:

رسالة وهي عديمة الرأس لبتر وقع في المخطوط المنقول عنه:

وهذا كتابنا- كتب الله لكم ملء القلوب، من الاضاءة والتنوير، وكفاء
الظواهر والغيوب، من التخليص والتطهير، وأعاذكم بعصمته من تقلبات
التبديل والتغيير، ونجاكم برحمته من موبقات التفكير والتقدير -من حضرة
مراكش- حرسها الله- ونحن نشكره سبحانه على ما وطأ أمره العزيز وممكنه،
وأضعف به كيد الشيطان وأوهنه، ومهد بإثارته هذا القرار الامين وأمنه، فله
-عز وجل- في كلاءة هذا الامر المحفوظ وحراسته أسرار يمكن الايمان
تصفحها واجتلاؤها، وأقدار يبسط الدعة والامان اختيارها وابتلاؤها، وآثار
يبعد بها عن مبلغ الاعداء ومدارك الاشقياء سمو هذه الدعوة واعتلاؤها،
وهو أمر الله الذي لا يضره مناويه ومخاذله، وعهده القوي الذي لا يناله
أوباش الظلم وأراذله، وكلمة الله التي لا يثني المؤمن عنها عاتبه العتي وعاذله.

وقد تجدد الآن من نصر الله وفتحہ، ما تعجز القوى البشرية عن شرحه،
وتظهر العناية الربانية في بذله ومنحه، وإن كانت العبارة بأوائل ذكره
مستنفدة، والنعوت والاصاف في حقه منحطة إلى أرض القصور مخلدة،
ففي إلقاء الممكن من حديثه مجال للاعتبار، ومنال لعزیز الآمال والاطوار،
ومآل لناشيء التيقن والاستبصار، وماهي إلا آيات بينات غشي العالم نورها،
وحقائق جليات اضمحل لها إفك الكفرة وزورها، وجنود مغنويات برز لنصر
هذا المحسوس النفيس محجوبها ومستورها.

وذلكم أن الاشقياء فلانا وفلانا وأصحابهما كانت نفوسهم الخبيثة كامنة
على أذاها، وعيونهم السخية نائمة على قذاها، وفطرهم الفضة ناشئة بما
مدها من الغلظة وآذاها، ولم نزل بعد الامام المعصوم، المهدي المعلوم -رضي
الله عنه- من أول هذا الزمن نحملهم في حجر الكفالة والكفاية، ونجريهم
بمجاري العناية والحفاية، ونسعى في تدريجهم على مدارج المعرفة والدراية،
ونأخذ بأيديهم وهم يخرون على وجوههم الغاية بعد الغاية، ونرى وصل
أرحامكم التي قطعناها شقاوتهم من جملة ما يجب لحرمة المهدي -رضي الله

عنه- من الحفظ والرعاية، وهم خلال ذلك أغمار لا يفهمون، وسوائب لا يقفون عند حد ولا ينتهون، وهمل يريدون التصرف في المنكرات بما يشاؤون ويشتهون، دأبهم استخلاص الفسقة و واستصحاب الخونة من حثالة الناس والسرقة، والاسترسال في مذاهب الانعام المرسلة المطلقة. ونحن مع الاخذ بأيديهم، وكفهم عما يرديهم، نرجو ان شعب الجنون من شبابهم تسكن، ومستأنف الاحوال من قبيح آدابهم يحسن، ودائب الرفق في عتبتهم وإعتابهم يدرب ويمزن، وسابق الشقاء مع ذلك يستتبع فيهم لواحقه، وينصب بينهم وبين السعادة قواطعه وعوائقه، ويحمل آرائهم المنقومة، وحوادثهم المذمومة، حوادثه وبوائقه. فلا يلحظون جهة من جهات التقوى بطرف، ولا ينتفعون من كلمات التذكير وحروف التنبيه بكلمة ولا حرف، ولا يتعرضون لقبول الله بشيء من أعمالهم في عدل ولا صرف، حتى انتبذوا عن أمر المهدي -رضي الله عنه- بالغراء، واتخذوه وراءهم ظهر بجانب الابعاد والاقصاء، وصارت حرماته عندهم منتهكة، وأماناته مستهلكة، بيد الغصب والاعتداء، وأظهروا عورة ما استطيع سترها بوجه من وجوه الستر الشرعي والاغضاء، وكلما

ارتفعت أسنانهم إلى أطوار الكهول، وخيلت هيئاتهم وأبدانهم أنهم في حد
أولي الفهم والعقول، هوى بهم حرمانهم في غيابات الغفلة والذهول، واجتاز
بهم شيطانهم إلى حضيض الجور والنكول. واقترن بهم من قرناء الرجس،
وشيطان الانس، من كان يلقي إليهم زخرف القول غرورا، ويعددهم بما يوهلون
له جذلا بنيله وسرورا، ويريههم نهز الغفلات، ذهابا بهم إلى المهلكات، ومرورا.
ومع ما كان الامر يتوسع لهم من الارزاق المنعمة، والخيرات المتممة،
والمنازل المكرمة، والخييل المسومة، فلم يكن مستطابهم إلا غلولا يحترقون
بناره، ويتطوقون بعاره، وينطلقون في أنجاده من تهاوشه وأغواره، والنصائح
أثناء أحوالهم، وإزاء أهوالهم، تروم امحاءهم من سكرتهم، وإقالتهم من
عثراتهم، فلا يزيد الارشاد إلا غيا، ولا تسمع الموعظة من حيهم ليا، حتى
تفاحش منكرهم، وتطابق مظهرهم الخاسر ومضمهرهم، ولم يقفهم عن
محارم الله تعالى ما يقف أهل المروات ويزجرهم. فلما أشرف على دائهم
الاعياء، وتجاوزهم الاستهتار والاغواء، ولم يرددهم من خبائث إرادتهم الخوف
ولا الحياء، هجروا قصد التأديب بالهجر، ووقفوا موقف الردع والزجر،

واحتملت المشقة في التماس ما عسر من تعليمهم وتقويمهم رغبة في المثوبة
والاجر، ثم لوحظت رعاية ذمامهم، وثبتت القلوب على جانب استعطافهم
واسترحامهم، واعتقدوا الصدق فيما ادعوه من التوبة لاحتقار آثامهم، وبين
لهم أن الذي يثبت به شرفهم، ويرعى معه اولهم السابق وسلفهم، إنما هو
الاستمسك بعروة الدين، واتباع أمر المهدي- رضي الله عنه- على الثلج
واليقين، والتأدب بآداب الطائفة الصالحات في كل الاعمال والشؤون. ونهوا
عن مخالطة الاوباش، ومداخلة أهل الانزواء إلى باطنهم والانحياس،
فأظهروا الاعتزال عما كان المتاب منه، ثم عادوا على إثر ذلك لما نهوا عنه،
وتردد الردع لهم والزجر وتريد الشرك والقرع، وتمكن في تعريفهم، لتبديلهم
وتحريفهم، الايضاح والصدع، وهجروا مرة بعد مرة، فعادوا إلى سيئاتهم كرة
على كرة، واستبطنوا من سحرتهم وكهانهم شرفئة وأسوأ عترة، وترددت
عقولهم المعقولة بين نفاثة في عقدها، وعاكف على ارتكاب القرانات
وترصدها، وحاكم على غيب الله بخروج الاشكال من الاشكال وتولدها.
فاستمر تخبطهم في مسالك العطب، وتورطهم في طلب وعدهم المرتقب،

وزين لهم ما في استهواء الناس بمنصبهم، ودعائهم في السر إلى اعتقاد مذهبهم، وناجاهم على ذلك من شيطانهم جمع، وألقى إلى حديثهم المفتري نصر من المذنبين وسمع، والامر إذ ذاك عندهم على استتار واحتجاب، وهم من العثور عليهم وتوجه النعمة إليهم في شك وارتياب، وعندنا من تحسين الظن بالكافة غاية ما يمكن، ومن معاملة الجمع بالجميل ما يجب لله تعالى ويتعين، والاشقياء المذكورون لا يرون الاحسان أحسانا، ولا يتزيدون مع الرفق بهم ورجاء الخير فيهم إلا نفاقا وطغيانا، والآيات تسمع وتتجلى فلا تلقى منهم إلا صما وعميانا، ونار الحقد في جوانحهم تتأجج، وسموم الغل تتمشى في أعضائهم وتتدرج، وهم من تزيد الكرب وتأكد الهم بما يسر هذا الامر العزيز ويبهج.

فلما كانت الغزوة التي فتحت فيها بجاية وسائر تلك البلاد المشرقية وظهر من نصر الله هناك العجب العجيب، وتأتى بها من غرائب التسهيل والتيسير ما بهر العقول والالباب، ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنتاب، وأنفرت حيات إذايتهم تنسل وتنساب، وسلخوا في التحريب والتخريب مسلحا

لا يشك فيه ولا يرتاب. وكان لهم في الشقي فلان عمدة كبرى، وعدة أجرى
لها القدر من حكمه المسأصل ما أجرى، فاطلع الله على سره الخبيث قبلهم،
وصرم بانتقاله حبله وحبلهم، وتعجل إليه النظر المتدارك فقيده وعقله،
وطرقه الامر المعاجل فاستاقه ونقله، وأقام في السج إلى أن كان الاياب إلى
هذه الاقطار، بحكم الاستحسان والاختيار، وأوضح الله عند ذلك من بواطن
أولئك العادين الماكرين، وسائر أولئك المنافقين الكافرين، ما توالى على
وضوحه وظهوره حمد الحامدين وشكر الشاكرين. فنظر بعون الله في إطفاء
نورهم قبل اشتعالها، وقطع موادهم قبل تسربها واتصالها، وجز رؤوس الفتنة
عند صراخها واستهلالها. وقتل فلان بن فلان ومن جرى مجراه في الشقاق
والنفاق، وتقبضت على الباقيين منهم يد الاسر بعد الاثخان وشد الوثاق،
واقترضى الابقاء والاملاء في الشقيين الباقيين فلان وفلان وتأخيرهما بقدر
الله عن ذلك المهلك، والعدول بهما إلى سبيل النجاة من ذلك المسلك، على
تيقن من فسادهما، وخبت اعتقادهما، وانبعاثهما إلى أسباب نفاقهما
وارتدادهما. وأقاما بهذه الحضرة-حرسها الله- في قيد الغفلة، وفترة المهلة.

ثم ظهر أن الغاية القصوى في التجاوز عن عظيم ما اجترحا، والتغافل عن

مؤلم ما تمنيا واقترحا، أن يرسلنا من عقال الاعتقال ويسرحا، واختير لهما

سكنى فاس-حرسها الله- بجميع أهليهما وبنيهما لينزلوا بقرارتها خير

منزل، ويكونوا لتمييز أحوالهم هناك بمعزل، وأمر لهم بما يقوم بهم من

المؤسسات، والمحترث والجنات، والتفت فيهم جانب الرحمة والحنان كل

الالتفات، ليبلغ الحجة عليهم منقطع الآماد وغاية الغايات. فكانوا هنالك

تتجافى جنوبهم عن مضاجعها، وتترامى قلوبهم إلى مساقطها المردية

ومواقعها، وتترأى غيوبهم في محالها من الافتتان ومواضعها. وتسلك إليهم

من أشقيائهم متكهن جرى منهم مجرى الدم، ولاصقهم في عقر ديارهم

ملاصقة الالصق الالزم، وزادهم خبالا إلى خبالهم في روم الهجوم والتقحم.

فلما سار الموحدون- أعزهم الله- إلى رباط الفتح- عمره الله- واتفق

هنالك من عقد هذه البيعة السعيدة ما اتفق، وتم أمرها بحمد الله على ما

أجمع عليه الملاء وأصفق، طرق الأشقياء المذكورين من قاصمة ظهورهم ما

طرق، واشتعلت لها نار الحسد بين ضلوعهم فالتهب شواظها واحترق، وأتاهم

من حلولها في نصابها، وقطع آمالهم من اختلاسها واغتصابها، ما أراهم
سقوط أرواحهم الخبيثة بمركز قيامها وانتصابها، وحلول القارعة بأفئدتهم
الفانية بآلام الحسرة وأوصابها . وكان لهم من أوليائهم في الغي من يريهم
الفرصة في هذه الحاضرة -حرسها الله- بمعرض الانتهار، ويمد إلى وعدهم
المكذوب أكف الاقتضاء والاستخبار، ويروم الخروج بهم عن خموله وذلتة إلى
حين الظهور والاعتذار . وكانت المكاتبه بينهم وبين كثير من النافقين الذين
كانوا يتربصون الدوائر، ويستبطنون الغوائل والغوائر، بأن يكون ورودهم على
هذه الحاضرة -حرسها الله- بغتة تفجأها، وعلى حين غفلة لا تمهلها بزعمهم
ولا ترجيها، ولم يعلموا -وقمهم الله- أن وقاية الله هي التي تعصم، وأن
عروته الوثقى لا تفصل ولا تفصم . فسار إليها الاشقياء المذكورون من فاس،
والحين يريهم كل تخيل فاسد وقياس، ويوهمهم وقد طبع على حواسهم أن
ليس في مغالبة الله من باس، ومروا بنظير وما يؤازيه على تلك السبيل من
بلاد صنهاجة فوجدوا هنالك من أعداء الله من أضافهم وزودهم، وأجراهم
من البر بهم على ما عودهم . فتمكن اغترارهم، وتوجه استعجالهم وابتدارهم،

ووصلوا خارج هذا القطر —حرسه الله— وقد تعلق بأهداب الليل نهارهم،
وتأتى احتجابهم بظلامه واستتارهم، فدخلوا عندما مضى منه هده، وغشيهم
من زمانه بدء، فقصدوا الديار التي كانت لهم ولقرابتهم فاحتالوا أوساطها،
واستغشوا أوباشها وأخلاقها، وتوخوا لمتوصل غدرهم مربطها بهذه الحضرة
—حرسها الله— ومناطقها، وباتوا ليلتهم تلك واثقين على ترتيب أمرهم المختل،
متوكلين على أولئك المنافقين بذلك الربط المنحل، ورأوا بما اعتقدوه من
تيسير الفتك وتأتيه، أن النهار أبسط لقصده وتوخييه.
وعلموا أن الشيخ الشهيد أبا حفص عمر تفراجين —رحمه الله— كان
العامل على هذا القطر والناظر فيه، فقصدوه عند خروجه إلى الجامع وقد
أعد لصلاة الصبح عدة المخبت الخاشع، وأجاب التثويب إجابة السامع
الطائع، وارتدى من الطمانينة رداء الساكن بقرارها الراتع، فهجموا عليه
فاغتالوه بأيديهم عند لقائه، وتركوه مقتولا في سبيل الله بحياته الدائمة
وبقائه، وركبوا خيلهم التي تسابقت بهم إلى مصارعهم، وأوردتهم على
قواصمهم وقوارعهم. فجالوا بها خلال الديار، ونادوا أثنائها بالاعوان

والانصار، وألقوا إلى مواعديهم الاخيرين أبصار الاتقاب والانتظار،
فعاجلتهم بواطش الاقتدار، وفضحهم بمرأى البوار والخسار ضياء النهار.
ورأى الناس أنهم الاشقياء الذين تبين اعتقادهم، وتراءى لهم قيامهم بالليل
واستبدادهم، وتبرأ منهم الشيطان إذ تحصل لهم كفرهم وارتدادهم. فالتفت
إلى قتالهم العامة، وجلت بهم الصاخة والصامة، وأسلمتهم لعواقب الحين
الشيعة والحامة، وقتلهم من جنود الله من لا يعرف، وحاق بهم من بأسه
سبحانه ما لايرد عن القوم المسرفين ولا يصرف، وأطفأ الله نارهم في مثل
ارتداد الطرف، وصرف بأسهم عن الذين آمنوا بالطف وجوه الصرف، ولم
يكن بين رويتهم على متون السوابح، ووقوع نحورهم وحلوقهم على غروب
النواحر والدبائح، إلا مقدار نظرة الناظر ولمحة اللامح. وأبرزوا هنالك خارج
المدينة بقاع قرقر، تلفح وجوههم من عذاب الله كل ريح صرصر، مرتنين
بآثامهم، مسلمين بإسلامهم لاسلامهم، منكوسة ذوائب هامهم بين أقدامهم،
تخطب العبر بأفنية إفنائهم وإعدامهم، ويفصح الحق أنهم المفردون يوم يدعى
كل أناس بإمامهم، لقد كان في قصصهم عبرة لولي الالباب، وآية تجردت في

محو آثارهم عن ظواهر الأسباب، وفاتحة طرحت أشعة نورها وأبقت آثار
تطهيرها على أخريات الاحقاب والاعقاب.

ولما اجتمعنا-وفقكم الله- بهذا القطر الذي نفى الله خبثه، وخلصه مما
ألقاه الشيطان ونفته، نظر بعون الله في موجب البحث والتتقيب، ونيطت
بأنقاب الامر طلائع الارصاد والترقيب، فأعثر الله على غواة الاشقياء
ودعاتهم، وأطلع على غيوب المنافقين وطوياتهم، وانبعث إليهم طوائف
الانتقام من خواصهم وذواتهم، وتقبض على من عرف بآذانهم قواعد الفتنة
وأصولها، ورؤوسها التي تمكن بها وجود الغرة وحصولها. وكان حكم الله فيهم
حز رؤوسهم من أجسادها، وتصيير نفوسهم إلى سوء مصيرها ومهادها،
والغزو فيهم متصل مع الايام، والبحث قائم على جانب الظن والاتهام.
والحمد لله الذي جعل لاوليائه عقبى الزمان، وظلل عليهم غمام الانعام
والاحسان، وحمى بحمايتهم قبة الاسلام والايمان، وأوقع مخالفهم
ومخاذيلهم في حبال الخلاف والخذلان، وأولى من هذه النعم الممدودة،
والحظوظ المجدودة، ما شكره فرض على الاعيان. فسارعوا إلى شكرها —

رحمكم الله- مسارعة الاصفياء الخالصان، واستبشروا فقد مدت عليكم
أجنحة الدعة والامان، وإياكم من عباده العارفين بمواقع النعم، العاكفين على
انتهاز فضله المغتتم، الواقفين بطاعته مواقف أمره الملتزم، إنه ولي الطول
والكرم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسالة السابعة:

من أمير المؤمنين- أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الشيخ أبي محمد
وسنار، وجماعة أصحابه الطلبة والمشيخة والاعيان والكافة من أهل مراکش-
أكرمهم الله بتقواه، وأعانهم على شكر نعماءه —سلام عليكم ورحمة الله
وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي تكفل بوعده الصادق إتمامه وإنجازه، وتحصل
لحزبه الآخر السابق إعلاؤه وإعزازه، وتقلقل في عدوه الفاسق المارق قهره
وإعجازه، والصلاة على محمد نبيه الامين، الذي أظهر على حقه المبين،
إظهاره وإبرازه، والتفت على أمره المكين، صدور العلاء وأعجازه، وعلى آله
وصحبه الغر الميامين، الذي تجلى بهم تعين الاسلام وامتيازه، والرضوان
المستدام عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، موضح سبيل الرشاد حين عم
استغواء الشيطان واستفزازه، ومنجح أسباب الارتياح إذ تيسر اغتنام المطلوب
وانتهازه.

وهذا كتابنا إليكم- كتبكم الله من عباده الشاكرين في الرعيل الاول،
وعرفكم عوارف الصنع المنيف بكم على المحبوب المؤمل، ولا أعدمكم بوصل
الاستيلاء، وإدامة الاظهار والاعلاء، عزة حاملة على سنامها المذل، شاملة
بغماتها المضلل، عاملة على تمامها المكمل —من حضرة تلمسان- حرسها
الله- وقد تعالى فتح الله أن تحيط به الاقوال، وتجاوز ما تطمح نحوه الآمال،
ويتناهى إليه الطلب والسؤال، وعلى الرؤية والمروى فما البديهة والارتجال،
وانتشر على البلاغة والادراك فلا التقسيم ولا الحصر ولا التفصيل ولا
الاجمال، ومع اعتماد التحقيق، وارتياح التصديق، فما الامر مما يدرك بنعت
ولا ينال.

وقد تقدم إليكم- وفقكم الله وأعانكم على شكر ما آتاه- من ذكر ما
تحملته الاشارة والاماع، ولهذا الكتاب التالي، الذي من شأنه برزت الايام
والليالي، نبذ قررها الاصفاق والاجماع، وبشر انتهت عند أولها الاماني
والاطماع. فقد كان صنع الله في افتتاح هذه البلاد الشرقية على ما تقدم
ذكره من التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع، وإراحة النفوس

بإزاحة القواطع والموانع، وهذا الامر العظيم في درجاتها يستعلى، وعلى
غاياتها ونهاياتها يستولى، وببركات باسطة في الوجود، وحائطة على الرسوم
الشرعية والحدود، يستتبع نواشي النماء المزيد ويستتلى، حتى جمعها بجوامع
القهر، وأنطق فيها لسان الايمان إنطاق الاعلان والجهر، وصير غرائب
التفسير فيها آيات بينات على باقيات الدهر، ومن يرتضع أشطرها من
الاعراب، ويودع أعمارها دواعي الجلاء والخراب، قد قذفتهم الغلبة حينئذ
إلى صحرائها، ونبذتهم الروعة بعرائها، وحدثتهم حال الكرة المهدية عن
كماتها وضرائها، فصاروا بين تدافع الحيرة والتهيه، وتراجع التخيل والتمويه،
مظهرين الانابة إلى المتاب، متكررين في أكثر الاحيان على مراتب الشك
والارتياب. وعساكر الموحدين المتقدمة إلى فتح القلعة وقسنطينة —حرسها
الله— مخيمون على إشعال تلك الجهات بإزائهم، حريصون على غزوهم في
عقر مواقعهم ومراقب انتزائهم، راغبون في الاذن لهم بمسؤولهم، ناظرون إلى
منشآت خيال الضالين وتخيلهم. وهم —آخذهم الله— في خلال ذلك يوالون
المراسلة على معنى المخادعة، ويخافون عقبى المصارمة والمقاطعة، ويترددون

في التقدم والتأخر مع الانقياد والمنازعة واضطرابهم في أحوالهم تلك
مستوضح، وارتياهم مع ظهور الجلاء ممقوت مستقبح، والامن مع ذلك يتفقد
الموحدين المذكورين بالتأكيد عليهم في الاضراب عنهم وإن سفهوا، والالباب
على تنبيههم لينتبهوا . ورسائلهم ورسلم أثناء ذلك تقابل عندنا، فعادة هذا
الامر العزيز هي الاحتمال والاجمال، والرفق بالجهال، ومقابلة البعيد الصعب
بالتقريب والاسهال لتشملهم التوبة بحسناها، وتقابلهم الرحمة بأكرم وجوها
وأسناها، وتتاولهم كلمة التوحيد بلفظها ومعناها، إذ لا مراد من أهل الدنيا
إلا توبة يصدقونها، وعقيدة بالايان يحققونها، ويد بالطاعة يمدونها إلى
الشريعة ويلقونها .

فلم يرد الله إلا أن يكون هؤلاء الاشقياء ممن تقذفه الهلكة إلى سحيقها،
وتتقسمه النعمة بأيدي تبديدها وتمزيقها، وتتصبه العبرة على منزوحة
سبيلها وطريقها، لأنهم كانوا خلال ما ذكرناه لكم من أحوال استئلافهم،
والتبصر على حفاتهم وأحلافهم، وإمساك الموحدين عن مقدورهم من
تدميرهم وانتسافهم، يخاطبون جميع من ببلاد إفريقية وما يتصل بها إلى

جهات الاسكندرية من العرب المغمورين بغوامر الجهالة، المغرورين بأوامر الضلالة، مخاطبة الاستصراخ والاستتجاد، ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد، ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحدين والاعتضاد .

فحين شاء الله أن نحق عليهم كلمة العذاب، ونشق إليهم مهامة ذلك اليباب، عند العزم على هذه الحركة الميمونة لمعنى الانصراف والاياب، أتت بالحائمين أرجلهم، وعجل إليهم بالدمار تعجلهم، وأسرع بهم الويل لا يؤخرهم عن ميقاتهم ولا يؤجلهم . وأقبل جميع من ذكرناه لكم من أعراب تلك البلاد النازحة قبائل هلال بن عامر من عرب اليمن، وشعوب الحروب والفتن، بقضهم وقضيضهم، عاملين على إغواء إخوانهم الضالين وتحريفهم، نافرين أفواجا بعد أفواج بغاية عزمهم ونهاية نهوضهمو حتى التقى المصرخ والمستصرخ، وقعد الشيطان على نحورهم أجمعين يتبن وينفخ، وألقى في قلوبهم المظلمة أن يكون جيشهم الذي يدوخ، وأراهم أن الجميع مروع بهم روعا لا يسكن ولا يفرخ، وزين لهم سوء أعمالهم والله يكتب ما يعملون ويستتسخ .

فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد، وكتائبهم تتعاقد على الاعترام

وتتعاقد، وأمدادهم التي غصت لها تلك المشارع المعينة والموارد، تتناصر على رأيها الخاسرة وتتعاقد، إلى أن انتهوا ما لا ينتهيه العد خيلا ورجلا، وعمرؤا أنجاد تلك الارض وأغوارها وعرا وسهلا، فما استطاعتهم حملا، ولا وسعت أن تكون لهم قرارا ولا أن يكون لها أهلا. والموحدون الكائنون إذ ذاك هناك مقبلون على ما أمروا به من ارتحالهم إلى العرب وانتقالهم، والكف عن معارضة أولئك الخاسرين وقتالهم، فزادتهم تلك الحال الظاهرة اغترارا وواقضت عندهم عفوكا على الطغيان وإصرار، والاقدار تجرهم برسن الاهمال إجرا، وتطوى في صدر الزمن مخبئات من الامتحان وأسرا. فكلما رحل الموحدون المذكورون إلى مأمهم مرحلة رحل الضالون على أثرهم، وعملوا على شاكلة تخيلهم الذميم وتصورهم، واعتقدوا مصاقبتهم في المحال، وتمكنهم من ذلك السعي الضال، قدرة من قدرهم، ونتيجة من نتائج آرائهم ونظرهم، بوادي الأقواس بجهات سطيف —عمرها الله— ورأوا أن الاشقياء المذكورين يلازمونهم ملازمة الظل، ويرادفونهم على الترحال والحل، وأن الحال تقتضي مناجرتهم ومفاصلتهم، وتوجب مقارعتهم على دين الله

ومقاتلتهم. ولم يجدوا دواء يشفي من دائهم العضال، ويستوفي الراحة منهم في تلك الحال، إلا العزم على جهادهم بعد الاعتماد على ربهم والاتكال، فخطبونا بعزمهم على ذلك، وأعلموا بصورة أحوالهم هنالك، وعرفوا بكونهم عند مخاطبتهم المذكورة ناظرين في غزوهم، مجيلين في لقائهم بعون الله تعالى أعنة عدوهم.

فكان من التوفيق الممنوح، والرأي السالك إلى السداد سبيل البيان والوضوح، إنفاذ جمل مباركة وأعداد مسددة من عساكر الموحدين — أعانهم الله — إلى الجهات المذكورة على وجه الاستظهار بحركتها، والاستكثار من بركتها، ونحن إذ ذاك بمتيجة — عمرها الهـ على سبيل الصدر، وحالة المعلن المقدر. فبذل الموحدون الناهضون إلى إخوانهم جدهم في السير، ورجوا نيل حظوظهم من ذلك الخير، فلاحقوا بهم — أعان الله جميعهم — على المرغوب والمرجو، وأطلوا على جنابهم إطلال الظهور والعلو، وكان الاتصال بفضل الله قبل مناجزة ذلك العدو. وألفوا آجالهم — أعانهم الله — على غاية من الاستشراء، ونهاية من الاسترسال على تلك الأذراء، واجتمعوا على بركة الله

اجتماعا أحمدا عاقبته، وقصدوا ملاحظة أمر الله تعالى ومراقبته، ودارت
بين الموحدين -أعانهم الله- مواعظ التذكير والتذكر، وتقررت عزائمهم على
نصر كلمة الله كل التقرر، وحسن المتاب ورجي الثواب للأمد المضروب
والميقات المقدر، وقصدوا أعداءهم بعد الاستعانة بالله والتوكل على نصره
المؤزر، عندما أشرقت شمس الضحى، ونصبت رحى الحرب فكانوا قطب
الرحى، وانتحى من نصر الله وفتح القريب من حزبه المظفر ما انتحى.
ولحين ما عاين أعداء الله قصد الموحدين على مضاء الاعتزام، وباشروا
آثار الارتباط الايماني والالتزام، راموا فحيل بينهم وبين المرام، وتخللوا
الاقدام على ثبت الأقدام، من مدارك أمثالهم من الطغام، وأشكالهم من
الاباش الليثام، فلم يغن عنهم عمل الاوهام، من هول ذلك المقام، وأحرق
نصر الله بأوليائه إحداقا جمعهم على أقطاب الالتئام، وأودعهم خلال البررة
الكرام، وكانت للكافرين دفعات جاهلية عادت بها عليهم عوائد الانتقام،
والتقمتهم الحرب الزبون عندها أوحى الانتقام، وكابد ذلك الهول الكبار جميع
فرسانهم وأعيانهم، ومن يدعي البطالة والحماسة من أمرائهم وكبرائهم،

فالتقت عليهم حلقتا البطان، واستقبلت بهم تلك الهزيمة الشنعاء جهات تلك
المراحات والاعطان. فاختلفوا بمواشيهم اختلاط الانعام بالانعام، وأزعجت
أوساطهم إلى حواشيهم إزعاج الارهاق والارغام، وفرقوا —ولا حول ولا قوة
إلا بالله- تفريقا بع الاجتماع ونثرا بعد الانتظام، وأخذت المنايا تلتقطهم،
فتتشرهم على الارض وتبسطهم، وتريهم ان الغواية توقع الغاويين وتورطهم.
واستمر القتل فيهم والاتباع لهم من أول ذلك اليوم المبارك إلى آخره، ولم
يسر الموحدون فيه —على ما ذكروه- إلا بين إبل راتعة وسائمة، وخدور على
عمدتها منصوبة قائمة، وأبقار وأغنام لم تحط بها الابصار، ولا قيدها في
عيون الناظرين التتاهي والانحصار. وغير ذلك من أنواع الأنفال، وضروب
المغانم التي لا تجري على حكم التمثيل ولا الامثال، حي إلى جنب حي، وشيء
متصل بشيء، مسيرة أربعين أو خمسين من الاميال.

فبأعداء الله ما بهم من قتل مفن، وانهزام مبعد وحمام مدن، وانصرام بكل
صارم ماض وانتظام بكل ناقد لدن، غشيتهم تلك الغواشي الغوامر، فذل لها
المأمور منهم والامر، وحاق الويل بهلال بن عامر، أقل الهلال وخرب العامر.

ولم يحل بين سيوف الموحدين، ورقاب الفل من أولئك المفسدين، إلا ليل أجنه
بفسقه، وطواه على أخريات رmqه.

ثم انقسمت جيوش الموحدين —وفرها الله— صبيحة اليوم الثاني إلى
أقسام أخذ كل قسم منها سبيلا غير سبيل غيره، واستقبل ما يستقبله
الطالب المجد من قصد مرارمه وإعداد سيره، فمنهم من غاب عن المجتمع،
وجد في ذلك الاتباع والتتبع، أربعة أيام وأكثر وأقل كل يغزو ويغنم، ويجول في
تلك المهامه الفيح لا يني ولا يتلوم، حتى انتهوا إلى أوائل بلاد إفريقية وما
يجاورها، لا يرون لبقية المارقين أثرا، ولا يجدون محدثا عنهم ولا مخبرا. ثم
آبوا بفضل الله ورحمته ومعهم من الأنفال المضافة إلى ما تقدم ذكره، والغنائم
التي يتضائل لها عد كل عاد وحصره، ما لا يعبر عنه بعبارة تحديد، ولا يتوهم
متوهم أن وراءه في الكثرة من مزيد. وأخذ الموحدون —أعانهم الله— بعد
اجتماعهم على مركزهم، وظفرهم بمحبوبهم وبمنجزهم، يضمون من سبي
الكافرين وغنائمهم وما أوبقته الحرب من خيلهم وسلاحهم ما لا يستطيعه
الضم، ولا يتناوله الكثير الجم. ثم أخذوا في الحركة بما أقدروا على سوجه

من ذلك إلى هذه الجهات —حرسها الله— بعد أن لم يتمكن لهم بوجه من الوجوه عد ما تحملوه، ولا استولت إحاطتهم على ما نقلوه. وهم الآن —رعاهم الله— مقبلون بها على أتم ما تتعلق به الآمال البالغة، وتقتضيه الكرامة السابغة.

وأعلمناكم بذلك —أعزكم الله— ليعظم منالكم من هذا الفتح الذي طبق الآفاق حديثه، وملأ الابصار والاقطار منشوره ومبثوثه، ولتشكروا الله عليه شكرا يستنفذ غاية استطاعتكم، ويستجد عزائم نشركم له وإذاعتكم. والحمد لله الذي عمنا وإياكم ببركاته، ونصب على حقيقة هذا الامر الحق إلا من ادلة آياته، وجعل العاقبة لأولياء دينه المتين وولاته. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب مستهل ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسائة.

الرسالة الثامنة:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين بسبته- وفقهم الله وادام كرامتهم بتقواه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله فاتح الفتوح، وواهب الخير الممنوح، والصلاة على محمد نبيه الأمين النصيح، وعلى آله وصحبه الأخذين بأخذا المحض وقصده الصريح، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القاطع بأمر الله آثار الكفرة من الاقطار المعمورة والمهامه الفيح، فإننا كتبناه إليكم- كتب الله لكم في طاعته سعيا متقبلا، وجعل الصلاح متبعا كتبناه لكم ومتقبلا- من حضرة مراكش -حرسها الله- ونحن نوالي بشكره سبحانه على ما يواليه سبحانه بأمره العظيم من إظهار دائم، وعضد بنصر أوليائه قائم، وإرداف حزب ظافر بحزب غانم.

وقد وصلنا -أكرمكم الله- بمخاطبتكم الاثيرة. فوقفنا على ماسنى الله

تعالى لصاحبكم أبي محمد عبد الله بن سليمان وأصحابه النافدين معه في

القطائع- عمرها الله- حين ركبوا ثبح البحر غزاة في سبيل الله، مستمطرين
من ماء الرحمة على متون تلك الأمواه. فكان من تسهيل الله لهم ما كان، وظهر
صنعه الكريم لأوليائه وبيان، واجتازوا بأهل مالقة والمنكب فأظهروا لهم أحوال
الامتتاع، والاستعداد للدفاع، ما أظهروا، وأبدوا سلاحهم مجاهدين وشمروا.
ثم استخاروا الله على قصد المرية فألفوها قد أخذت باشعار أولئك الاشقياء
حذرهما، وجمعت على دفع ما لا يدافع من أمر الله أمرها. فصبحها أولياء الله
بكرة باكرتها بحتفها، وقطعت دون المدافعة ما قطعت من سيوفها وأكفها،
والكفرة الذين بها يرون مالم يستطيعوا من ضم شخاتيرهم وتحصيلها،
وتفريقها من وسقها ومحمولها، فلما أظلت عليهم تلك القطائع المباركة قاطعة
برومهم، قارعة لقلوبهم الخبيثة بهول صباحهم ذلك ويومهم، راموا التحصن
بالشخاتير المذكورة فملؤوها سلاحا ورجالا، وتخللوا من رد أمر الله خيالاً
فاسدا وضلالاً. فبادر من بادر من الموحدين — أعانهم الله- إلى الحبال التي
وثقوا بها شخاتيرهم المذكورة في البر، واعتقدوا الاسناد اليه بها جنة من ذلك
الامر، فقطعوها قطعاً بتاً، وفتوا بصرمها عن البر أعضاء الكافرين فتاً. فلما

عائين أعداء الله حبالهم أنكاثا، ولم يجدوا دون شفار الموحدين غياثا، بادروا التراسي في الماء، واغتموا الفرار طمعا في الابقاء على ذلك الذماء. فافتى الموحدون بالقتل آثارهم، ووصلوا باللاحاق المستأصل فرارهم، ودخلوا عليهم الباب آمنين، وتخللوا أثناء القطر المذكور- أعاده الله- لاستتفاذهم طالبين. فلما اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرقوا من منشيئات الكافرين ما حرقوا، استأصلوا بالقتل كل ما أدركوا منهم ولحقوا، ورأوا أن وصولهم إلى المسجد الجامع هناك مدرك ما ابتدروا واستبقوا. ثم أخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطائعهم، والعود إلى مواضعهم واحتثوا على ما كان بالمرسى المذكور من الغراب والشخاتير وحرقوا ما لم يمكنهم جلبه، ولا توجه لديهم طلبهو وغنموا من تلك الآلات الحربيات ما أتى الوصف على ذكره، وأحاط الاعلام بقدره. وعادوا بفضل الله ظافرين بأربح تجارة، ظاهرين بأوضح علامة للنصر وإمارة. فالحمد لله الذي أيد وأسعد، ومهد لأوليائه من أكناف أعدائه ما مهد.

ووقفنا على سائر ما ذكرتموه وأعلمتم به من سؤال ذلك الوعد، والخروج
به عن سبيل القصد، إلى غير ذلك مما يتبين من ذلك المضمرة الفاسد والعقد،
والله كفيل بقهر من خادع، وقاطع.

ووقفنا على ما ذكرتموه من وصول ابن مقدم إلى ما ذكر لكم من التعاون
معكم في تلك الغزوة المباركة فألفاكم بحمد الله قد فزتم بربحها،
واختصصتم بمنحها، إلى سائر ما يشتمل عليه كتابكم من الانباء، الجامعة
لفصول السراء. فاشكروا الله تعالى على ذلك شكرا يكون لفضله مستزيذا،
ورددوا ذكر آلائه ترديدا، واستديموا ببركة المهدي- رضي الله عنه- حظا من
التوفيق سعيدا.

وأما ما ذكرتموه —أكرمكم الله— من أمر أولئك التجار الذين يحملون
المرافق إلى مالقة وأمثالها فليتنظروا نظرا أكيدا في قطعهمو وردعهم،
ولاسبيل لأحد من خلق الله أن يمد أحدا من تلك الاصناف بمادة حتى يتضح
وجه ما ادعوه وتعرفونا بذلك ليرسم لكم ما تعمدون عليه. وكل من أخذ
حاملا إليهم مادة، فالسيف جزاؤه، والقتل من تلك العادة، دواؤه. فاعتمدوا —

وفقكم الله- على ما ذكرناه، واجتهدوا فيما أمرناكم به قبل هذا وألزمناه،
وكونوا على قدم الاستعداد، والمستعان الله. والسلام.

الرسالة التاسعة:

رسالة أمير المؤمنين عبد المومن بن علي إلى الطلبة والموحدين الذين
بغرناطة كتبت في ذي القعدة سنة 554 هجرية، وهي من إنشاء أبي جعفر
بن عطية:

من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة والموحدين
الذين بإغرناطة . أعزهم الله وأدام كرامتهم بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله
وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي على عونه مستند الاعتصام، وعلى معارج تيسيره
منعطف كل مرام، وبحوله وقوته مؤرك كل بدء من الأمور وتمام، وهو أهل
الشكر والحمد على الإحسان المتتابع والإنعام؛ والصلاة على محمد عبده
ورسوله موضح سبل السلام، والمُبْتَغَت إلى الأحمر والأسود من كافة الأنام،
وعلى آله وصحبه البررة الكرام؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم،
المخصوص بالعلامات الصادقة والأعلام، المبشر من ظهور أمره العلي،

وتعيينه المراد المعني، بما فاضت تباشيره، وسالت أساريه على صفحات
الليالي والأيام.

فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم تُعرف الآلاء المستجدة، وبركة المواهب التي

هي من بحر عطائه مُستمدّة - من منزل الموحدين - أظهرهم الله - بظاهر

(المهدية) - فتحها الله - ووعد الله لأوليائه قد فُض الإنجازُ خاتمَه، وبرز لياليه

المخبوءة وأيامه، وأجرى بأعلى حزبه المفلح قضاياها الماضية وأحكامه، وأخبر

طائفة هذا الأمر الكريم وعامري صراطه المستقيم، من ثمرات هذه الحركات

المشهود لها بميامين الأقدار، المُستتة في مِضمّار الاختيار، ما بلغ فيه -

والحمد لله - من إظهار دينه وتمشية أمره إلى أفضل مأمول، ووقف منه على

عناية الله الباهرة للعقول، المطابقة لمواقع المطلوب، من فضله والمسؤول، ولله

تعالى في بركات هذا الأمر العزيز رحمةً على العباد ممدودة، وإشارةً في

معنى العموم مقصودة، وإرادةً في حياطة المُعرق والمُشيم والمنجد والمتهم

موجودة مشهودة، ليأخذ الأمرُ العزيزُ بمجامع الاستواء، ويُطبق بمطارح

الأدواء، ظلم الأهواء، ويُعمها تصديقا للخبر، وتحقيقا لوارد الأثر، بالقسط والعدل على حد سواء.

ومازلنا أعزكم الله وهذه المطالع الشرقية مأمُّ الركاب، وإليها مرتقى الأسباب، والجهاد المظفر ينتابها من كل مدخل مبارك وباب، نلتفت من تلکم الجهة إلى العدو الأندلسية - حفظها الله - بما يجب لها من الالتفات، ويجعلها الجهة الميمنة وإن تقسمت العزائم من جهات، تمكينا لاستحداث العزم، واستئناف الأمر الجزم، إلى أن أرسل الله من فضل إنعامه، وصيب إخطاره وإلهامه، ما استخير فيه تعالى فصدقت به الاستخارة، واستقلت به الأفكار المدارة، وأذنت فيه بما انشرح له من الصدر بإيذانها مقدمة البشارة، وهو النظر في اختطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق - عمره الله - مجمع البحرين، والقطب الآخذ بأطراف البرين، يختص بعون الله بهذا الأمر العزيز إنشاؤها، ويكون إلى إيجاده اعتزاؤها وانتماؤها، ويرتكز بفنائها علم هذه الطائفة ولواؤها، وإنَّا لنرجو أن أشعة النصر لتلکم الجزيرة تثبت من مطلع هذا الشارق والشاهق، وتلمع في كل مطرح بكل بارق، وتضم إلى حزب الله

وفتته كل مُنافر ومفارق، ويكون النظر المحتل بذُراه، المنعقد بعُراه، مطلاً إن شاء الله على المغارب والمشارق.

وقد قويت العزائم بحول الله على الاشتغال ببنائه، وعمارة فنائه، والأخذ في شأنه، وإعداده على مقتضى المدن المُحصنة المُحسنة لأوانه.

واستخرنا الله تعالى ووجهنا الشيخ أبا إسحاق بُراز بن محمد والحاج يعيش - أكرمهما الله - للاشتغال بذلك على ما وادعناهما عليه وذاكرناهما به في كيفية الاشتغال، وصورة الاعتمال.

ولتجمعوا - أعزكم الله - ومن إليكم من الأشياخ الأندلسيين - أكرمهم الله - بهذا الجبل المبارك مع إخوانكم الطلبة الذين بإشبيلية ومن عندهم من أصحابهم والواصلين من قبلنا الذين ذكرنا لكم توجيههُما ، وتتنظروا في ذلك المكان بالنظر الحسن الجامع لمصالح المدن ومرافقها، وإجادة الاختيار وتوسعة الفناء.

وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبا حفص - أعزه الله - ليصل إلى ذلك المكان إن تمكن له؛ وخاطبنا الشيخ القائد أبا محمد عبد الله بن خيار - أكرمه الله -

ليصله وتتلاقى هنالك الآراءُ المذاكرةُ المباركة . وعند الشيخ أبي إسحاق

والحاج يعيش ما ذاكرناهما فيه مما يُعتمد عليه إن شاء الله . والله يُعرِّف

اليمن في ذلك والخيرة، ويجعله عنوان الإقبال وفاتحة النصر بمنه . والسلام

عليكم ورحمة الله وبركاته .

أعزكم الله ! خلال النظر في إنفاذِ هذا الكتاب إليكم، سنى الله تعالى ما

يصلكم صُحبته من فتح (قفصة) وما اتصل بفتحها من مخاطبة عرب (

قابس) الذين فروا منها وقت فتحها، وطلبهم للأمان على ما اقتضته المخاطبة

إليكم .

ونحن قد استخرنا الله تعالى على التوجه إلى الغرب والحركة لاستقبال

تلك الجهات، وأخذنا في أهبة ذلك .

فاستعدوا له، وشُدُّوا أنفسكم، واضبطوا مواضعكم، فكان بنصر الله الذي

وعد به وإتمام أمره لأهله، ولا بد من دوامه ما دامت السماوات والأرض .

فلتُعرفوا بذلك جميع الموحدين وتُبشروهم به وبمطالعة الفتح لهم إن شاء

الله . والسلام .

كتب في الموفي عشرين من ذي القعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

الرسالة العاشرة:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته -إلى الشيخ الفقيه
القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج-أدام الله كرامته بطاعته وتقواه- سلام
عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي عمت برحمته نعمه، والصلاة على محمد نبيه
الذي انجابت بنوره حنادس الكفر وظلمه، وعلى آله وصحبه الذين عرفت في
هديهم أخلاقه العظيمة وشيمه، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم.
القائم بأمر الله ثابتا في بسطه قدمه، ظاهرا في تمشيته في البسيطة سبقه
وتقدمه، فإننا كتبناه إليكم- كتب الله لكم عقد الايمان وربطه، ونظم لكم
بطاعته سلك العمل وسمطه- من حضرة مراکش- حرسها الله- ونحن نشكره
سبحانه على إفاضة الخير ونشره، وصلة تيسيره لأوليائه ويسره.

وقد وصلنا أخوكم الشيخ الجليل أبو محمد، وابنكم أبو الحسن، وصاحبكم
الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن زرقون- أكرمهم الله بتقواه- فأدوا من حق
هجرتهم البرة ما قلده، ونالوا من خير الزيارة والبيعة ما اعتمدوه، ثم

انصرفوا مبرورين مسرورين بما ألقوه من بركة هذا الامر الكريم ووجدوه.
وقام عذرکم-وفقکم الله- على ساقه فقبل، ومثل ولاؤکم نائباً عن الوصول
فوصل. ولکم عندنا-وفقکم الله وأکرمکم- من حظوظ التقريب والایثار،
وموالاته التتبيه على سبيل الدوام لکم والاستمرار، فوق ما تؤملونه، وخير ما
تستقبلونه.

فاشکروا الله تعالى على ما وهبکم، وتقربوا إليه بالاعمال الصالحة
يضاعف قربکم، والله يحفظ إيمانکم وأمانتکم منا لکم ورتبکم، بمنه.
والسلام.

الرسالة الحادية عشر:

من أمير المؤمنين-أيده الله بنصره، وأمده بمعاونته- إلى الطلبة الذين
بصنهاجة تأسفرت والمشیخة والاعیان والكافة- وفقهم الله وأعانهم على ما
يرضاه- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على أنعمه التي أضفاها، ورحمته التي نرجو أن تقربنا
زلفاها، والصلاة على محمد نبيه الذي قضى حقوق الأمانة ووفاءها، ومحا
بأمر الله آثار الكفر وعفاها، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، وليه
الذي تقبل سبل الهداية واقتفاها، وأقام رسوم الشريعة على رغم من حجدها
ونفاها، فإننا كتبناه إليكم- كتب الله لكم أجر من جاهد واجتهد، وتوكل على
صادق وعده واعتمد- من حضرة مراكش -حرسها الله- في السابع
والعشرين من ربيع الاول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وكلمة الحق بفضل
الله لا تفارق سموا وعلوا، وأمر الله يكبت أعداءه عدوا فعدوا، وبركات إمامنا
المهدي-رضي الله عنه- تتزايد على مر الزمان رواحا وغدوا .

وقد صدرنا -وفقكم الله- على الحضرة العلية تينملل-كرمها الله- بعد أن

قضينا بحمد الله أوطارنا، واقتضى النظر في المصالح صرفنا وإصدارنا،

واجتمعنا بالجماعة الواصلة من قبلكم على أحسن حال، ووعينا جميع ما

تحملوه من مقال، ومن قبلهم تقفون إن شاء الله على مقتضى نظرنا ومعناه، و

ينتهي إليكم بحول الله ما رأيناه. وتصلكم طي كتابنا هذا نسخة كتاب خاطبنا

بمثلا كل جهة من جهات الموحدين -وفقهم الله- فيما قرب وبعد، وحملناها

من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله ويعضد، ورأينا إيفادها إليكم

لتتالوا من بركاتها ما تجدون إثره قريبا، وتحوزون من خيره حظا وافرا

ونصيبا. فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم من فضله، وخصكم به من عميم

طوله، واعلموا مقدار ما نلتموه من الاجر في صبركم وجهادكم، وإخلاصكم

لهذا الامر-أعلاه الله- بجميل اعتقادكم، وسترون من بركات ما تحمدون به

آراءكم، وتجنون ثمرته لكم ولمن وراءكم- يسركم الله للخير، وجعلكم ممن سار

في مرضاته أكرم السير- والسلام الكريم عليكم ورحمة الله.

الرسالة الثانية عشر:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الشيخ الأجل أبي

زكرياء يحيى بن علي- وفقه الله ويسره لما يرضاه- سلام عليكم ورحمة الله

تعالى وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي ظهرت قدرته، وختمت بالسعادة لأهلها فطرته،

وأقامت أود الدين معونته الغالبة ونصرته، والصلاة على محمد نبيه صلاة

تكتنفه بها ذاته الطاهرة وآله وعشرته، وعليهم أجمعين من السلام الطيب ما

ينعمهم نعيمه ونصرته، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي

تهللت به قسّمات الدين وأسرته، وانفرجت بهدايته أزّمات الامر وعسرته.

وكتابنا إليكم- كتب الله لكم أسعد الاعمار عاقبة وتماما، وأقرب الاقدار

اتصالا بمنازل الابرار والمآما، وأعود الاقطار بجوامع الاختيار ربطا لها

ونظاما- من حضرة مراکش -حرسها الله- ونحن نسأل الله عوننا على ذكر

أياديه التي لا يحصرها حاصر، ونعمه التي كل لسان في وصفها قاصر،

ونستتصره على القيام بحقوقها فهو ولي وناصر، ونقبل بولاء الايمان وإخلاصه على كل من أقبل وأخلص، ونبادر بكرم الاجابة إلى كل من جنح نحونا وحرص، ونصل في ذات الله كل ولي وصل ووالى، وتتلقاه من قبولنا بما يستمر نماؤه ويتوالى. وما غرضنا - والله يوفقكم - إلا خير بجميع المسلمين شامل، ورشد لا يخيب عن أمله أمل، وصفاء للمصافي آخذ بآداب الله عامل. وقد تواردت علينا كتب الطلبة الذين بالاندلس - وفقهم الله - يعلموننا بما أنتم عليه لهذا الامر - كرمه الله - من الميل والنزوح، وبما بينكم وبينهم من الاتصال الصريح، والتعاون في ذات الله القائم على الولاء الصحيح، وذكروا من تحققهم لمحبتهم وصفائكم، واختبارهم لصدق عهدكم ووفائكم، ما عقده الرأي الموفق وسدده، وأوصله التحقيق موصلة وأشده. ثم وصل الشيخ أبو فلان فشافه من ذلك بأغراض جميلة مستحسنة، وآراء ظاهرة في الصلاح بينة، ووصف جانبكم الاثير، في إرادة الخير، بأوصاف مفصحة بكرمه معلنة. فتلقينا ذلك كله تلقي الرضا والاحسان، واستقربنا غاية عهدكم بما استقربناه

من ذلك العنوان، وسررنا أن تكون لهذه الطائفة العزيزة من أخلص الاخوة في ذات الله والاخوان.

وهذا الامر -وفقكم الله- هو أمر المهدي-رضي الله عنه- قد بشر به النبي -صلى الله عليه وسلم- في غير ما حديث، وظهرت علاماته وآياته في قديم مزامره وحديث، ودل على اسمه وزمانه، وفعله ومكانه، بأدلة رفعت الاشكال والتعسف، فأتى -رضي الله عنه- كما نعت النبي-عليه السلام- ووصف، وقال-صلى الله عليه وسلم- فيه وفي طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الاشاعة والاذاعة، وقضى بوجوب الايتمار والطاعة، وأخبر في جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة. والامر في ذلك كله من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى بيان، ولا يفتقر إلى إقامة برهان، فهو معلوم كما أنبأ به الخبر الصحيح في العرب والعجم والبدو والحضر في كل ديوان وإوان، وقد تبين الصبح لذي عينين، وجدع الحق أنف الكذب والمين، وجلت الهداية ضد الضلال والرين.

وأنتم -وفقكم الله- أولى من شد على هذا الامر-كرمه الله- يد المتمسك،
وأحل نفسه بحبوحه هذا المنسك، وأقام دينه على هذه القاعدة التي هي نجاة
المؤمن ومهواه المشرك. والذي لكم عندنا -وفقكم الله- من إرادة الخير
واعتقاده، وإسعاف أملككم فيه وإسعاده، ما تميل إليه الافئدة، وتجنح نحوه
النفوس المسترشدة. فاعلموا ذلك علم اليقين، واعتقدوا عليه عقد المغتبط
الضنين. وإنما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكن، ويتخلل جذله جوانحكم
تخلل المبالغ المعن، ما خص الله به مسوفة- أكرمهم الله- الذين هم من
قبيلتكم وفصيلتكم، فإن حبهم ثبت لهذا الامر على تحقيقه وثبته، وقام ودهم
له في مواطن الصفاء وقبلته، وهاجروا اليه وهجروا سواه، وكانوا إلفا على
من أراد به سوء ونواه، وظهر ولاؤهم ظهورا أغنى عن وصفه اشتهاره، وصفا
أديمه فاتضح نهاره، واشتمل عليهم منه بفضل الله أكرم مشتمل، وعاد عليهم
بكل متمنى ومتأمل.

وكذلك الشيخ أبو زكرياء يحيى بن إسحاق بن إبراهيم -أعزه الله- وبنوه
وقرأته -رعاهم الله- قد تمكنوا من محبته في أعلى الرتب، واعتقدوه لما

وجدوه كما قصدوه غاية المطلب، فاستسعت لهم ولسواهم من أعيان القبائل
المذكورين كافة أكنافه، واستقر بهم إلى منازل البر والترفيح استندناؤه
واستعطافه، فهو آلفهم بفضل الله عليهم وهم ألافه. وإن كتب جماعتهم لترد
من صحرائهم، وتقرر ما لديهم، من حسن أغراضهم وسداد آرائهم.
ومثلكم —وفقكم الله— اقتطع لنفسه من هذه الحظوظ المباركة بأوفائها،
وأخذها عن أحفل وجوهها وأحفاها، فدنا ببركتها وقرب زلفاها. جعلنا الله
وإياكم ممن نورت الحكمة قلبه بنورها. وملأت المحبة جوانحه ببشراها
وسرورها، وأتته آمال الصلاح بمنقادها وميسورها، بمن الله وعونه. والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب في التاسع من ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

الرسالة الثالثة عشر:

من ذلك رسالة بعث بها عبد المؤمن بن علي الكومي سنة 546 إلى الطلبة

الذين بسبته:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته- إلى الطلبة الذين

بسبته وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة- وفقهم الله وسددهم-

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد ، فالحمد لله مولى الرغائب ، وحسنى الآمال والمطالب ، وقابل ثوبة

الثائب ، نحمده بما يتعين من حمده الواجب ، ونصلي محمد نبيه العاقب ، وعلى

آله وصحبه أولي المفاخر السنية والمناقب . ونصل الرضا عن الامام المعصوم ،

المهدي المعلوم ، المحرز شرف المباديء والعواقب ، المجلي بنوره الثاقب ، حجب

الظلام الواقب . وكتبناه لكم . كتب الله لكم شكرا موالى معادا ، من حضره

مراكش -حرسها الله - وقد وصلنا بحمد الله على أتم أحوال الظفر واليمن ،

وعدنا إليها تحت ظل السلامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ،

وإطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها ... ونال الغزاة في هذه الحركة

الميمونة من الأجور والمغنم الموفور، والفضل الذي ينشر عليهم أجنحته يوم
النشور ما لا يتمكن لأحد من البشر وصفه على حال ولا يتأتى لمخلوق لغته
على استيفاء وإكمال. فطوبى ثم طوبى لمن حضر في سبيل الله فأحضر،
وأخلص نيته في غزوه الميمون بمبلغ ما استطاع وقدر، وتساعدت جوارحه في
تلخيص ما اكتسب من هذه الفضائل واذخر.

وإن النعمة -وفقكم الله- بهذه الفتوح العميمة العامة شاملة على من أخذ
بهذا الأمر العزيز ودان، وتزيا بحلته البهية فازدان، فهي الفتوح التي ظهر بها
من آيات المهدي -رضي الله عنه- العجب العجائب، وفاض فيها من بركاته
الفيض المنساب، ودرت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب. وكان أمرها
مخصوصا بالمرتدين الخاسرين، فمحقهم وطيسها الشديد الغلاب، وليس لله
على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب.

فاشكروا الله، عباد الله، شكرا دائما مستمرا مع الاحيان، وأحسنوا
ضمائركم، وطهروا سرائركم، في مقابلة هذا الاحسان، وتوبوا إلى الله جميعا
توبة نصوحا غاسلة للقلوب من الاردان، فالتوبة أصل للأعمال الراجحة،

والمُتاجر الرابحة، ونعوذ بالله من الخسران. وقد آن لكم، أيها المؤمنون، أن
تجددوا توبتكم تجديداً وكيداً، وتغتنموا من هذه النصائح التي تتداولكم حظاً
مفيداً، وتشهدوا الله على التمسك بعصم الإيمان، وكفى به شهيداً. فبادروا -
رحمكم الله- إلى طاعة الله تعالى في العلانية والنجوى، وشدوا أيديكم على
هذا الحبل الأمتن الأقوى، واعلموا أنكم راحلون، فتزودوا، فإن خير الزاد
التقوى، وحافظوا -أصلحكم الله- على إخلاص النيات، والتزام الصلوات،
وسائر أعمال الطاعات، وتلاوة القرآن والتوحيد فهي أكرم التلاوات.
واصفحوا، واصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا، واقرعوا أبواب الرحمة بإيمان
الإيمان تستفتحوا، وواظبوا على تغيير المنكر وأتمروا بينكم بمعروف تنجحوا.
واشتغلوا بدينكم اشتغالا يخلصكم، والتزموه التزاماً يخلصكم على الدوام
ويحرصكم، وتزيدوا من الأعمال الصالحة في هذه الأعمار التي لا تزال مع
اللحظات تنقصكم. ورحم الله إمرءاً سمع النصيحة فابتدراها، وجاهد نفسه
على طاعة الله فقرها، وأخذ عليها مآخذ الشهوات فنهارها بالحق وأمرها.
أعاننا الله وإياكم على شكر نعماءه، وطلب رحمائه، بعزته. والسلام.

الرسالة الرابعة عشر :

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حفص ، وهي التي أورثته الرتبة

العلية السنية، والوزارة الموحدية المؤمنية، قوله :

كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصر الله

تعالى المعهود المعلوم ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ (آل

عمران) :فتح بهر الأنوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه

للأمانى النائمة جفوناً وإحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق

الألسن لكنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً، جمع أشتات الطلب والأرب، وتقلب في

النعم أكرم منقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب:

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وقد تقدمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة، كان أولئك

الضالون المرتدون من أهل ماست قد بطروا عدواناً وظلماً، وارتكبوا إفاكا

وجرماء واقتطعوا الكفر معنى واسماً، وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا إثماً،

وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب

بمهولاته، ونصب له الشيطان من حبالاته، فأنته المخاطبات من بعد وكتب،
ونسلت إليه الرسل من كل حذب، واعتقدته الخواطر أعجب عجب، وكان
الذي قادهم إلى ذلك، وأوردتهم تلك المهالك، وصول من كان بتلك السواحل
ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف عن الأعوام، واشتغل على
زعمه بالقيام والصيام، آناء الليال و أطراف الأيام، لبسوا الناموس أثواباً،
وتدروا الرياء جلباباً، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق باباً.

كان الناس هناك موقف أخذت الحرب فيه حقوقها، ونهجت به طريقها،
وعرفت به رجالها وفريقها، وكنا نحن بخاصتنا في الساقة فحملنا على من
يلينا من الأعداء، وحملت كل قبيلة على من يليها على الولاء، فكانت هناك
كرات شهيرة، وحمولات كثيرة، وظهر لأعداء الله تجلد لم يرقط لأمثالهم، ولا
تخيل من أفعالهم، وذلك انهم كانوا يعاينون غويهم لا تتقله الحملات ولا
تحركه، ولا تزيله المنية عنه ولا تتركه، فكانوا ينظرون اليه ويظهرون الجلد
والاجتهاد لديه، فلما عاينه الموحدون واقفا بمكانه، مقبلا على بهتانه، قصدوا
بعون الله لاطفاء ناره، وكف عنانه. فصرع بحمد الله تعالى لحينه، وبادرت

اليه بواذر منونه ، وأتته وافدات الخطيئات عن يساره ويمينه ، وعاد لوقته
طريحا، تقلب منه المنايا قلبا قريحا . وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في
هذه الأعوام لا تصيبه، والنوائب لا تنوبه، ويقول في سواء قولاً كثيراً، ويختلق
على الله تعالى إفكاً وزوراً، فلما رأوا هيئة اضطجاعه، وما خطته الأسنان في
أعضائه وأضلاعه، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدرُوا على استرجاعه،
هزم من كان لهم من الأحزاب، وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب،
وأعطوا عن بكرة أبيهم صفحات الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب،
فامتلات تلك الجهات بأجسادهم، وآذنت الآجال بانقراض آمادهم، وأخذهم
الله تعالى بكفرهم وفسادهم، فلم يعاين منهم إلا من خر صريعاً، وسقى
الأرض نجيعاً، ولقي من أمر الهنديات فظيعاً، ودعت الضرورة باقيهم إلى
الترامي في الوادي، ودام الموحدون في الإصرار على قتلهم والتمادي فمن كان
يؤمل الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينجيه، اختطفته
الأسنة هناك اختطافاً، وأذاقته موتاً ذعافاً، ومن لج في الترامي على لججه،
ورام البقاء في ثبجه، قضى عليه شرقه، وألوى بذقنه غرقه، وكان دخولهم في

أول مده الى حين ابتداء الوادي في جزره ونقصانه وكفه من حملاته وطغيانه
ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعناً وضرباً، ويلقونهم
بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً، حتى انبسطت مراقات الدماء، على
صفحات الماء، وحكت حمرتها على رزقته حمرة الشفق على زرقة السماء،
وجرت العبرة للمعتبر، في جري ذلك الدم جري الأبحر فمن لم تدركه منيته
بسنان، أدركه الغرق بشر مكان".

الرسالة الخامسة عشر:

وفي رسالة أخرى بعث بها عبد المؤمن بن علي إلى الشيخ أبي فلان

وجماعة المشيخة بقرطبة، يقول كاتبها أبو جعفر بن عطية:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره، وأمده بمعونته -إلى الشيخ أبي فلان

وجماعة المشيخة بقرطبة- حرسها الله وأدام كرامتهم بتقواه. سلام عليكم

ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد ، فإننا نحمد إليكم الله الذي يصل الفتوح لأوليائه بفتوح ، ويلهم

الراشدين من عباده إلى كل رأي نجيح ، ويقرب للمتقربين بالتوبة النصوح ، كل

آم شاسع ومأمول نزوح، ويشفي بدواء الإقالة، من مرض البطالة، كل كبِد ذات

كبِد، وقريحة ذات قروح، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من

علم وحدانيته على جلاء من آياته ووضوح، ونصلي على محمد نبيه المصطفى

صلاة يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح، ونستنزل ببركاتها على جنابه

الانضر كل سحب سفوح، وعلى آله الاكرمين وأصحابه الظافرين من هداه

بحظ ربيع، الجائلين في ميادين حقائقه، وأتباع طرائقه، مدى أجل فسيح،

ونصل الرضوان المستدام، على من وجب الله الاقتداء به والاتمام. الامام
المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافة
المؤمنين خير نصيح، والداعي إلى ما أمر الله بالدعاء إليه على ما جبله عليه
من صحة بالهداية وتصحيح.

وهذا كتابنا اليكم -كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة،
و أدام لكم نصرة ما استقبلتموه، ونصرة ما أملتموه، أكرم إدامه، وأقام لكم في
العالمين من شواهد الاخلاص أبين إماره وأوضح علامة - من حضرة مراكش
-حرسها الله- وبفضله جلت قدرته ما استفاض ببركة هذا الأمر المبارك من
نور قدسي، وخير معنوي وحيٍّ، وما قربه بيمينه من أمل قصي، ولينه من شديد
قسي، وأسمعه أولياءه من نبأ إنسي، حتى انتشرت في الآفاق مطارح أشعته،
وابتدرت عشائر الإيمان ما ابتدرته من تعزز بعزته الأبدية ومنعته، واستتار
شرف سنته الطاهرة وشرعته، وأقبل كل موفق إلى ما وفق له من فيئته إلى
الله تعالى ورجعته، واستمسك الراشدون منه بعروة لا تتفصم، واعتصموا بما

لا ينجي من دعوته الربانية ويعصم، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكص المتأخر والألد الخصم.

وقد وافانا —أدام الله كرامتكم— كتابكم الاثير، فكان عن عقيدتكم لسانا مبينا، وأخذ في وصف انقطاعكم إلى هذا الامر العظيم، واعتلاقكم بجانبه الرحيم، ماخذا سهلا بينا، ونبأنا بما تطوقتموه من رفقته حين فرض التوفيق عليكم منها واجبا متعينا. وانتهت إلينا بيعتكم التي ضمنتوها بما اشتملت عليه من عهودها ومواثيقها، والتزامكم لما أوجبه الله تعالى من شرائطها والقيام بحقوقها، والله يمن عليكم بتثبيتها في مواطن الخلد وتحقيقها، ويوجدكم بركة ما أشمتموه من بروقها. وليس لكم —وفقكم الله— عن هذه الطائفة العزيزة إلا ما يطابق أملككم من إسعاف وإجابة، واحتلال قرار من لديها ومتابة، وولاية تتوب في تنويه جانبكم وإطلاع مطالبكم أكرم إنابة، ووصلة تربط لكم بفضل الله موات أخوة إيمانية وقرابة، فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنة شكرا تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة، وتستدعون

ببركة الله ولاء هذه العصابة، التي جعلها الله من خير أمة أخرجت للناس خير عصابة.

واستقبلوا -أكرمكم الله- بالأعمال البرة عمرا جديدا، وأحيوا أنفسكم بنور الحكمة إحياء سعيدا، وعضوا على طاعة الله ورسوله ومهديه بالنواجد عضا مسكبا لباحثها مفيدا، واشهدوا الله تعالى على التزامها، والدخول تحت إحكامها، وكفى بالله شهيدا، واسألوا الله أن يطهركم بالثلج والبرد والماء البارد سؤالا مستكثرا من رحمته مستزيذا. واستبشروا فقد نفحتكم البشري بعاطر نفحها، وتلقنكم الكرامة بريحانها وروحها، وأجلتكم الامنة أجوان كثنانها ودوحها، واستمسكوا بأمر المهدي -رضي الله عنه- فهو سبب النجاة والخلص، والمأمن من نوائب الانتكاس والانتقاص، والموعود بالظهور والاستيلاء والانتقام من عداته والاقتصاص، هو أمر الله الذي أتمه صدقا وعدلا، هو ستره الذي أصفاه على أوليائه سترا وسدلا، هو رحمته التي شملت المؤمنين فكانت لهم أهلا، وكانوا لها أهلا، وبه إن شاء الله تأمنون من كل ما خامركم نبيل روعه، وتصلون إلى ما حال دونه صرم الزمن وقطعه،

وتجدون عما قريب في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ما يظهر لكم بركته ونفعه،
والنظر بعون الله يكتف تلك الاقطار وينتظمها حتى تبل أرحامها، ويؤمن
حرمها، ويكون على سواء السبيل أممها، وينتحي الجادة طوائفها وأممها .
وقد وفد لنا -أكرمكم الله- أصحابكم الشيوخ أبو محمد وأبو الحسن وأبو
عبد الله - وفقهم الله- فألفوا بهذه الحضرة - حرسها الله- عصا تسيارهم،
ونالوا من الزيارة المبرورة والبيعة الكريمة منتهى طلبهم واختيارهم، وبلغوا ما
تحمّلوه من أخبارهم. ونرجو ان الله تعالى يعيد تلك الاحوال إلى أفضل
عوائده من الصنع الكريم، ويسقيها ما ينعمها به من ماء النعيم، ويوجد لها من
لطائف الرحمة ما كان قبل هذا الامر المبارك في حكم المعدوم، بمنه .
والسلام.

كتب في الثاني من صفر عام أربعة وأربعين وخمسمائة .

الرسالة السادسة عشر:

ورسالتة إلى الطلبة والأشياخ والعمال من الموحدين ببلاد العدو والأندلس

وهي بمثابة دستور للدولة الموحدية ، حيث ترسم سياسة عبد المومن بصفة

عامة وتشتمل على كثير من النقد الموجه للولاة والقائمين بشؤون الحكم عامة

والعلماء خاصة، وجاء فيها بعد البسملة والصلاة:

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى ونصره وأمده بمعونته ، إلى جميع الطلبة

الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى

واستعملهم بما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد ،

فالحمد لله وهو اللطيف الكريم، الرؤوف الرحيم، الذي بعدله قامت

السموات والأرض وبه تقوم، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة

والتسليم، ولأمته المخلصة في عليين كتابنا المرقوم، والرضا عن الإمام

المعصوم المهدي المعلوم ، الذي بعثه رحمة للمؤمنين ينيلهم به الروح والنعيم،
ويريهم رحيقها المختوم.

وكتابتنا هذا - كتب الله تعالى لكم رأفة ورحمة، وسوغكم من اليمن والأمن
أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه - من الحضرة العلية
بتقمل، حرسها الله تعالى في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث
وأربعين وخمسماية ، وقد وصلنا -والحمد لله- وجناح الرحمة مخفوض،
وطرف المكاره مغضوض، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض، وشأن الظلم
-بإذن الله تعالى- مكفوف مقبوض، والحق أبلغ لا كناية ولا تعريض.

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي رضي الله
تعالى لتجديد عهد به تقادم وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر في بناء
مسجده المكرم تمتعا ببركاته، ورجاء في تضاعف الأجر بكل لبنة من لبناته،
وحرصا على أن يتوافر به حظ التوفيق وقسمه، ويعلو في الملأ الأعلى ذكره
ورسمه، ورغبته في بيت من أفضل البيوت التي أمر الله عز وجل أن ترفع
ويذكر فيها اسمه، ولتتعم الجوارح بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة والمواسم

المعظمة، وتتزود بالتطوف على معاهدة ما عهدته العوارف المتممة، كل ذلك
غرضها في ذات الله تعالى غرضه، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير
ويستتهضه.

وقد ثم بحمد الله تعالى هذا الوطر واقتضى الإياب إلى النظر في المصالح
والرأي الجميل النظر ، وتفجرت -بحمد الله تعالى- منابع الخير وفاضت،
وعادت روابط الأمر إلى اشرف حالاته وآضت، وانبعثت موارد البركات بعدما
غارت في غير هذا الزمن المذكور وغاضت، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر
هذه النعم التي عمت ملابسها، ووعت الأفتدة نفائسها، وخاب عن رحماها
خاسر الكلمة وبائسها.

وإن الله تعالى قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتنساكه، وبين العدل
والجور حياة العالم وهلاكه، فالسعيد من لقي ربه مبرءاً من اتباع الهوى
سليماً، والشتقي من أتى مليماً باكتساب الكبائر ملوماً، ومن يكسب إثماً فإنما
يكسبه على نفسه، وكان الله عليماً حكيماً". والله سبحانه يهب الرحمة
للمسترحمين، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأصين، وفي الحض على ذلك

يقول وهو أصدق القائلين: "اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين". وبرحمته

سبحانه بسط لعباده النعماء ، وبرأفته كشف عنهم الغمء ، قال النبي صلى

الله عليه وسلم: إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وقد اتصل بنا ، وفقكم الله تعالى ، أن من لم يتقى الله تعالى ولا يخشاه ولا

يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاها ولا يومن بيوم الحساب فيما أدعاه من المنكر

وأفشاء ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والإيثار وينتشرون بالقتل بأعراض

الناس أقبح الانتشار ، يستحلون حرمة المسلمين من غير حلها ، ويسارعون

الى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطرا ورياء في غير

محلها ، ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهد الجبال عن حملها ،

ويستتبطنون من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ويتسببون الى

قتل المسلمين فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبيسات ينشئونها ،

ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها ، وينظرون الى اهتضام حق الله تعالى

فيهم بأباطيل يعدونها ظلما ويحسبونها ، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل

قاطعة موجعة ، ويعيثون فيهم بكل غاصبة للقلوب منتزعة ، والنبي صلى الله

تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول: "من قتل عصفورا بغير حق عبثا جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني عبثا من غير منفعة". ولا يلتفتون الى عاقبة ولا ينظرون، ولا يمرون باذانهم ما يفعل تعالى بأمثالهم ولا يحذرون. "يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا انفسهم وما يشعرون". هيهات هيهات. إنهم ساء ما كانوا يعملون، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدهم هدة من اشتداد الهلكة سدا، ويستأصلهم، بصواعق الانتقام، فقد جاءوا شيئا إذا.

أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم، ويوقعهم في مهاوي بلواهم، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما إستهواهم الشيطان به واستغواهم أما علموا أن أمر المهدي رضي الله تعالى عنه تساوى في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ألم يقل رسول الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى لذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم لقد آمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداما، وأعمت الشهوات بصائرهم اذهابا لنور الحق من نفوسهم وإعد ما، وتالله لو يتعين لنا فاعل ذلك وتشخص، لما خرج من حباله مكره ولا

تلخص، ولسارع اليه من أسرع عقابنا ما يمحو رسمه محو الفناء، ويكتب يديه
بما قدمنا من الخنى.

ولقد ذكر لنا فيما ذكر من تلك المظالم، المستغرقة لأنواع المآثم، الموبقة
لأهلها حين يقرع سن الندم النادم، أن أولئك الخائضين في غمرات أبحرها،
المثيرين لأسباب منكرها، الصارمين لعلق الشريعة القاطعين لأبهرها، يمدون
أيديهم الى ضرب الناس إغارا للصدور وإيحاشا، وذلك أمر معاذ الله أن
يرضى به مؤمن بالله، أو يتجه اليه حق بنوع من الاتجاه، ما أبعد العدل
أصلحكم الله تعالى - عن هذه الأمثال والاشباه، وقد علمتم ان عادتنا فيمن
يستوجب الضرب أو يستحقه و ممن يظلم الأمر الشرعي أو يعقه، حدود
معلومة، دون افحاش ولا انتهاك، ومواقف مرسومة، تقابل كلا بمقتضى جرمه
من أثيم أو أفاك.

ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها
ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرما وإفكا، وأدناها إلى من تولاهها وهلكا، وأكثرها
في نفس الديانة عيثا وفتكا، "فانا لله وإنا إليه راجعون" هل قام هذا الأمر

العالى إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه، وتمهيد سبيل الحق وطرقه، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه، اللهم انا نشهدك أن سبيلنا سبيلك، وإنا نستعيدك مما استعاذك منه محمد رسولك، روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعوذ بالله من المغموم والمآثم" تنبيهها على ما فى إغرام الناس من الظلم المظلم، ولئن نقل إلنا -والله الشاهد- إن نوعا من هذه الأنواع المحرمة، أو صنفا من تلك الاصناف المظلمة، يتولا أحد هنالك من البشر، أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر، لنعاقبه بمحو أثره عقابا يبقى عظة لمن اتعظ، وعبرة لمن تنبه لزاكر الحق واستيقظ.

وإن من ذلك الرأي الذميم، والسعى المنقوم، ما ذكر لنا فى أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها يتسبب اليوم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذى يضعون الغش طي ما يوهمون به من النصيحة، ويستتبطون المكر فى تصرفاتهم القبيحة، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ويقرنون بهذا من الوعيد والأغلاط الشديد ما يرضى له المذكور

بالخروج عن جملة ماله، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله، وإنها لداهية عاقرة، قاصمة للظهر فاقرة، ويا عجباً لكم -معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين- فإنكم بذلك مطلوبون، وما حجتكم وما أنتم على حق كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم للأمور هناك رصد كيف تجري هذه الظلمات وقد قام للحق أود أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك، والحرمان تنتهك، ولا يمتنع لذلك منكم أحد كلا ليعاقبن كل من جنى، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى، وإن وراء قولنا لتتبعنا يبحث عن ذلك ويمحص، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص ولا شك -والله أعلم- في أن أسباب تلك المنكرات، ودواعي تغيير تلك الأحوال المتغيرات، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس، ويقولون ما لا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلاً من العدل والقول الجميل والائناس، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها، وبعدكم عن مشاهدة الأمور ومعاينتها، والتحجب عن مطالعة الأمور ومعاينتها، والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها، وسبب قوي في انتقاضها وانحلالها، وفرصة

لوسائط السوء بانهمالها في البواطن واسترسالها، فلا تك لوا النظر فيها الى
أحد سواكم، ولا تبعدوا بغلط الحجاب عما قصدكم من الخير ونوالكم،
وباشروا الاحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد، وعليكم بالتواضع لأمر الله
تعالى وترك الاستعلاء فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل
والقال، وتثبتوا -وفقكم الله- في الاحكام التي لا بد لكم من النظر فيها تثبت
البحث عن حقائق الامور والاستقصاء، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللزد في
الخصام وبالغوا في الايذاء، ولا تظنوا أن الاجتهاد في الأمور يؤدي الى
الهجوم عليها والاقتحام، ويخرج النظر عن التثبيت في القضايا والاحكام،
فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً، واقصدوا الاعتدال مقصدا مقصدا مقسطاً، ولا
تجتهدوا في شيء لا تعلمون فيه حكماً، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه
لنرسم لكم فيه رسماً و فليس كل مجتهد مصيباً برأيه، ولا كل هاجم على رأي
منجحاً في سعيه، وبين طرفي الاحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة
ومناطها، وخير الامور -كما قال عليه الصلاة والسلام- أوسطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسببين لتلك القبائح، الساعين
في صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم لنشرد
بهم من خلفهم، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم، وقد استخرنا الله في
سد تلك الدريعة، وصد تلك الافعال الشنيعة، فراينا أن ترفعوا إلينا احكام
المذنبين للكبائر، وتعلمونا نبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر،
دون أن تقيموا الحد عليه، أو تبادروا بالعقاب إليه، ولا سبيل لكم الى قتل أحد
من كل من هو في بلاد الموحدين وانظارهم، ومن هو معهم و داخل في
مضمارهم، وكل من ترون أنه يستوجب القتل، ممن يريد المكر في أمر الله
والختل، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه،
ليفند فيه من قبلنا ما يوجب الحق ويقتضيه، ونمضي في عقابه ما ينفذه
الشرع ويمضيه، فاياكم من مخالفة أمرنا هذا في قتل أحد ممن ذكرناه كائنا
من كان، كبر ذنبه عندكم أو هان، ولتبادروا إلى اعلامنا بذنبه بعد سجنه
وتثقيفه لتقابله بما نراه، ونجري الحق فيه مجراه.

وإنه أعلمنا من يرضى من تلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه، ولا يبالي
أحسن الفعل فعله أم قبيحه، يبتاع المرأة، يبيعها دون استبراء، وبيعت في ذلك
بكل إقدام على الله تعالى واجتراء، ولا يتحفظ من واقعة الزنا المحضو
ومخالفة الواجب مع الفرض، وإن في ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من
اتباع الشرع، وإفساد الأصل من السنة والفرع، ما لا يحل سماعه، ولا يستقر
بنفس مؤمنة استطاعه، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً ممنهن أو
يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيخو لئلا يذهب الحق في ذلك
ويضيع، ولتقدموا للنظر في أسواقهن من ترضون دينه وإمامته، وتتحققون
ثقتهم وصيانتهم، فمن أبيع له البيع والابتياح احضره الأمين المذكور ليرتفع
بشهادته الشك والنزاع، وتجري السنة مجراها ويمتثل الأمر المطاع وكذلك
فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع من تغمونهن منهن في تلك الأرجاء، حتى
تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته، وتعلمونا من ذلك بجليته، لنرسم لكم فيه ما
يكون عليه اعتمادكم، ويجري إليه اقتصادكم.

والله الله في البحث على الخمر وتقديم النظر في أمرها فهو من أهم
الأمور، فإنها مفتاح الشرور، ورأس الكبائر الكرام والفجور، وهي رابطة أهل
الجرم، وجامعة اشتات الظلم، قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام
عليه وسلم: "الخمر جماع الإثم" فخذوا في طلبها في المواطن المتهمه بشأنها،
واجتهدوا في إراققتها وكسر دنائها، واعمدوا الى السبب الذي يؤدي الى
التمكن منها فارعوه والحظوه، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه، وقدموا أمناء
متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب، يكون بالمحافظة على ذلك محل
الكاء الرقيب، ولا يكن منهم الا من يفرق بين الحلال والحرام ويميز، ويعرف
ما يجوز شربه وما لا يجوز، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرب واعتصاره،
وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصاره، فما حل منه أباحوه، وما كان غير
ذلك قطعوه أصلا وفرعا وأراقوه، "الحلال بين والحرام بين" ولقضايا الشرع
نظام. قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه: "ما أسكر كثيره
فالجربة منه حرام".

وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد، ويستصحب الإضرار بالمسلمين
في الإصدار والإيراد، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون،
ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون، فانه ذكر لنا فعل كل فرقة منهم في
سيرها، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها، وان من جملة ما حكي عنهم
انهم يتألفون في الطرق جموعا، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعا، يكلفونهم
مؤناتهم تكليف المجرم، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم، حتى انهم لا يرتضون
في ضيافاتهم الا بأسمن الجزر، وناهيك بهذا الاجترأ العظيم الضرر،
فسارعوا- وفقكم الله تعالى- الى حسم هذه العلة من أصلها، وبادروا الى
قطع تلك العادة الذميمة وفصلها، وتخبروا لرسائلكم أرسالا، وانتقوا من اهل
المقدرة على ذلك والثقة رجالا، وادفعوا اليهم زادا يقوم بهم في المجيء
والانصراف، ويقطع شأنهم عن التكليف والالحاق، وارسموا لهم اياما
معروفة العدد، معلومة الامد، لينتهو بها الى مواقف رسائلهم، ويوزعوها على
مسافات مراحلهم، وحذروهم من تكليف احد من الناس ولو مثقال ذرة،

وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة، والله تعالى المستعان
على دفع أسباب الجور، ونستعيز به سبحانه من الحور.
وكذلك ذكر لنا -وفقكم الله تعالى- من التحكم في الأموال، وقلة المبالاة
بالتفريق بين الحرام منها والحلال، ان أولئك الذين ذكرت خدعهم، ووصفت
غرضهم الذميمة ومنزعهم، يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره وشرح مكره،
وتمتد أيديهم الى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون، ويجرؤون في
التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون، فاتقوا الله تعالى فيها، فإنها
أمواله المخزونة في أرضه، وبادروا الى كف كل معتد وقبضه، ولا سبيل لكم أن
تتفدوا منها قليلا ولا كثيرا إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما
هنالك، وهذا أمر منا لكم ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ
والموحدين كافة، أمرا دائما لازما، سنته بالاستمرار مستظلة، وصحته بفضل
الله لا تدخلها تعلقة.

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به جميع الطلبة والموحدين وكافة البلاد

التي هي بالدعوة المهدية معمورة، وبكلمة الايمان مشرقة منيرة، فأمرنا

بجميع فصول كتابنا هذا اليكم ولسواكم شامل، وفي كافة اقطار الموحدين نافذ عامل، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف فقد تبين عناده، وساء في العاجل والآجل مآله ومعاده، ومن لم يمثله بواجب الامتثال، ويكف يده عما رسمناه في كافة الاحوال، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه، واستقبل من ارتكاب النهي ما يصده الانتقام به عن سوء منجاء، فاستصحبوا حدنا هذا استصحابا مؤيدا . واتخذوه في كافة احوالكم مستندا ومعتمدا، وعلى كل من الى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد، الأخذ بالمذهب الرشيد، عون الامير -أيده الله تعالى- على بسط العدل وإفاضتهم على الكل، ورفع لعبء ثقل وكل : أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة على ذلك والاستدامة، ويتجافوا عن مواقع الظلم فالظلم ظلومات يوم القيامة، وينقادوا للواجبات بدارا إليها واسراعا، ويكونوا في التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفا واجتماعا . ولما كان هذا عندنا -وفقكم الله تعالى- أهم أمر وأوجبه، وأحق ما أدناه الحق وقربه، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدما، وأنفذه بأمر الله

تعالى إنفاذا ملتزما، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا، وهاهي
قد رفعت الاشكال رفعا بينا، وأورتكم فرط اهتبالنا حقا مبينا، فبادروا إلى
تلقيها بالامثال والمسارة، وصلوا ابتداء شأنها بالمواصلة له والمتابعة،
وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من تلکم البلاد من الطلبة
والعمال، وكافة المقدمين للأعمال، ولا تقدموا أمرا من الأمور على إنفاذ جميع
ما تضمنه، والاعتماد بكل ماشرحه وبينه، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال
بمعانيه، وبما امرکم به على قواعده ومبانيه، ومخاطبتنا بما يكون منكم في
تلقيه، واتباع ما ينهيه إليکم ويلقيه، واقرأوه على الكافة أعالي المناير،
واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والحوضر، واسمعوا به إفصاحا
وإعلانا، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدانا، وأحسنوا إيصال أغراضه
إليهم فإن الله تعالى يجزي الإحسان إحسانا، فإذا تفرغتم من قراءته على
الجماهير وبلغتم حجتة بواجب التبليغ والتقرير، فاكتبوا منه نسخا الى كل
قبيلة من قبائل ذلك النظر، وكل كورة من تلك الكور، واكدوا عليهم فيما أكدنا
عليكم فيه، من تقديم العمل فيه على كل الوجوه وامثال مضمينه على ما يحبه

الله تعالى ويرتضيه، وحذروهم من التعرض لمخالفته فلا عذر لمن لا يقصده
على الفور ويأتيه، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم، لنقابل
بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم.

وقد علم الله تعالى ان غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان، وجانبنا لهم
دعة مستمرة وأمان، ولدينا من التراؤف بهم والرفق بجانبهم شأن لا يقاربه
من فضل الله تعالى شأن، وقد علمتم ذلك منا وخبرتموه، وجربتموه على مر
الزمان وصبرتموه، فلتتقوا كل من استرعاكم الله امره بكل طلاقة ويسر،
ولتتشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر، ولتعلموا -رعاكم الله- ان من شملته
كلمة التوحيد، في العهد القريب او البعيد، في مضمار واحد من العدل
محمولون، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون ولفظ الموحدين بيننا وبينهم
جميعا، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكا مشروعا، وقد ألفت الكلمة
بينهم، فبعضهم لبعض في الخيرة أسوة، وقد قال الله تعالى "إنما المؤمنون
إخوة". فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل قصدا الى مرضاة الله تعالى
وإتيانا، وكونوا عباد الله إخوانا، وأحسنوا بهم -رعاكم الله- ظنا، وعودوهم

الخير لفظا ومعنى، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق وقولوا للناس حسنى،
واستألفوا الناس بالتي هي أحسن، وابذلوا لهم من المساعدة في ذات الله
تعالى غاية ما يتمكن، وانهجوا لهم من المبرات منهجا يبدو به مضمركم
الجميل ويتبين، وسروا بصالح عملكم وبشروا، ويسروا -كما قال عليه الصلاة
والسلام- ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا.
واعلموا ان السعي في هذا الغرض الواجب، والاعتماد في رفع ذلك المانع
الحاجب، لا يتأتى لكم جملة واحدة، حتى تكون نفوسكم متآلفة عليه
متساعدة، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوننا يجمع في الصلاح اراءكم،
ويضمن النجاح التام لكم ولمن ورائكم، فعليكم بالمظافرة والمناصرة والمؤازرة،
فهو سواعد السعد، وقواعد الود، وشيم الكرام الحافظين للعهد، وبها يعمر
محل الرضى ونديه، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه.
وقد نصحنا لكم فاقبلوها نصيحة قصدت في ذات الله تعالى قصدها،
وذكراكم بهذه التذكرة فاستقبلوا رشدنا، ونبهناكم تنبيهها بالغا وللحال
مابعدنا، جعلنا الله تعالى وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نيته، وأفقرغ

الرحمة على قالب سجيته، وحفظ ما استرعاه الله تعالى، فكل راع مسؤول
عن رعيته.

وكان مما بعثنا -وفقكم الله تعالى- على تنبيهكم وإذكاركم، وإيقاظكم
للنظر في تلك المصالح وإشعاركم، ما ألفيناه مراكش -حرسها الله- من بعض
تلك الانواع مما أحدثه فيه بعض أهل الابتداع، كنوع القبالة، وما يجري
مجراها الإزالة والإحالة، فإننا كنا لا نبحت عن ذلك، لتخلينا أنه لا يجرؤ أحد
أن يسلك في هذا الأمر الذي أظهره الله تعالى تلك المسالك، فلما كان الحث
عما يجب، وزال عن وجه المشاهدة ما كان يحتجب، اطلعنا على ذلك فأنكرنا
ما كان نكيراً، وأنزلنا بعون الله تعالى ما كان محذوراً بالشرع محظوراً، حتى
تطهر ثوب الأمن من دنسه، وتجلي الوجه الخالص عن ملتبسه، واقتبس نور
الحق من مقتبسه، وجرت الأمور على ما عهدناه عليه من الاعتدال والقوام،
بحكم ما أحكمه الإمام المهدي - رضي الله عنه في القضايا والأحكام، وإذا
كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب، فكيف الأمر فيمن هو في
حكم بعد عنا واغتراب.

فانظروا هذا ، وفقكم الله تعالى ، نظر أولي الألباب ، ولتسعوا جهدكم في

رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب

الكتاب، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الرسالة السابعة عشر:

رسالة الفصول وهي رسالة طويلة جامعة لأنواع من المبادئ والأوامر والنظم الموحدية: كتبها أبو جعفر بن عطية عن أمير المؤمنين عبد المومن بن علي إلى أهل (بجاية) يوصيهم بإقامة الحدود ، وحفظ الشرائع ، وإظهار الحق، مؤرخة في الثالث من شهر ربيع الأول سنة 556 هجرية.

من أمير المؤمنين ، أيده الله بنصره، وأمده بمعونته ، إلى الطلبة الذين ببجاية، أدام الله كرامتهم، ووصل صونهم وحمائتهم . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فإننا نحمد الله إليكُم الذي لا الله إلا هو، ونشكره على آلائه

ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله .

والحمد لله على ما أمدَّ به هذه الدعوة العظيمة، والكلمة العليَّة الكريمة،

من الأضواء والأنوار، وقرن بعزائم أوليائها من الأخذ بحجُز العباد من

التهافت في النار، وأحكم بإيمانهم من معاهد الهدى التي من استمسك بها

فقد فاز بعُقبى الدار، وأبان بهم معالم السنة المُستبينة الضوء الهادية المنار،
التي من سلك جدّه فقد أمِن من العِثار، ووقّف هممهم لديه من مراعاة أمور
الدين في النَّائي والدَّاني من الأقطار.

نحمده حمد من اهتدى إلى أنه الموجودُ المطلق الذي لا يتقيّد بالأمكنة
والأعصار، الواحدُ الفرد الصمد المنزه عن الشركاء والأنظار، المتعالي عن
صفات التّخير والانتقال والعجز والافتقار، المحيطُ بجميع الموجودات إحاطة
لا تحدها حدّة الأذهان، ولا تلحقها دقائق الأفكار. لا إله إلا هو لا تدركه
الأبصار وهو يدرك الأبصار.

ونصلي على محمد نبيه والمُبتعث من أكرم نجار، والمؤيد بالمعجزات التي
دحضت حُجج الكفار، وخرقت مُستمرّ العادة للعلم أنها فعل الواحد القهار،
وأّت على وفق الدعوى ليُتبين بها صدقه على الأضرار، وحكمت في كل من لا
يؤمنُ بها كل طريد الشّبي ماضي الغرار، وعلى آله وصحبه السالكون في ذلك
السنن والمُجرين في ذلك المضمار.

ونواصل الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى
لما ارتفع العلمُ بقبضِ العلماءِ الأخيار، وأُعجِبَ كُلُّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ مِنَ الصِّمِّ
البكم الرِّغامِ الأغمار، وقامت خطبائهم بأفانين التضليل وضروب الاغترار،
وقلبوا الحقائق فظهر من التبديل والتغيير ما أخفى دين الله تعالى الذي تكفلَ
له بالإظهار، وانبسط في البسيطة من المناكر ما لا يحتاجُ إلى إطالةٍ في
تعييده من الوضوح والاشتهار، فجلى بضياء حكمه ما استولى على آفاقها من
الظُّلمِ المشتدة الاعتكار، وأبان بمُعْجَزِ علمه من العلم بالله تعالى ورسله وبما
جاءت به رسله ما كان في طيِّ الخفاء والاستتار، وعلم طُرُق العلم بها التعليمَ
الذي انتفع به أهلُ التيقن والاستبصار، وصرح عن موارد الدين ما شملها من
الشوائب والأكدار، وأمدّه بالطائفة المنصورة المفتوح لها بصريح الوحي
وصحيح الأخبار، كلُّ دان وشاسع من الأمصار، الوارثين علمه والعاملين به
والمتصرفين له ليبقى أمره العظيم على الدوام والاستمرار، إلى قيام الساعة
وانقضاء هذه الدار.

فإننا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم كل خير جليل ، وأعانكم على امتثال أوامر
التزليل ، وجعلكم جارين على حكم الكتاب والسنة في الدقيق من الأمور
والجليل ، من رباط الفتح عمره الله ، والطائفة المنصورة محفوفة من حفظ الله
وكلائته ، ومكنوفة من صونه وحمايته ، وممنوحة من إظهاره وإعلائه ،
ومخصوصة من إرقائه وإسماعه ، وممدة من إضاءة زندها وإيرائه ، في تسنية
مرامها وإسنائه ، بما أنهضنا الله به إلى إحياء معالم السنة وإحكام أمراسها ،
وتثبيت أركان الدعوة على وثيق أساسها ، وتطهير الأمة من أدرانها وأدناسها ،
وتعليمها كيف تستضيء بمشكاة الهداية وتعشوا إلى نبراسها ، ليمشوا على
السَّنن اللاحب ، ويتقيدوا بالشرع المرتب الراتب ، ويعملوا في أمر دينهم
ودنياهم باللازم الواجب ، فلا يلبسوا الهدى بالضلال ، ولا يشوبون التحقيق
بالإبطال ، ولا يخلطون العمل بالرفض ، ولا يبعضون الإيمان فيقولون : نؤمن
ببعض ونكفر ببعض ، ليتخذوا بين الرشد والغي سبيلا ، وليروموا في الصحيح
الثابت تغييرا وتبديلا ، إلى أن تخلص قلوبهم من الرين ، ويكون عندهم العلم
والعمل متلازمين ، والباطن والظاهر متطابقين ، والقول والفعل متعارضين ، ولا

متتافيين، والله المعين على إكمال هذا المقصد وإتمامه، والملئ بائتلاف جمع
الجهات والأكناف على ما يؤثره من اتصاله وانتظامه.

ولما كان هذا الأمر العظيم إنما جاء في حين الفترة، وشمول الحيرة،
وارتفاع العلم، وحلول الجهل، وانبساط الجور، وانقباض العدل، وتملك الهمج
الرّعاع، واتباع الهوى المضل والشح المطاع، وقام به الإمام المعصوم، المهدي
المعلوم - رضي الله عنه - عندما أزبد بحر الضلال وطمى، واعتلى سلطان
الكفر واستمى، وتطايّر شر الأشرار وارتمى، وتفرقت في أنواع الأباطيل
الآراء، وغيرت معالم السنة البدع والأهواء، والدين أجنبي غريب، لا مناسب
له ولا قريب، ولا داعي له ولا مجيب، وقد قنع أهل الدنيا في معارفهم بمسود
الصحائف، مسطور الزخارف، لإماتة المعارف، وتطمين العوارف، وجر
المطارف، في صون التالد وجلب الطارف، فبصرو علم، وثقف وقوم، وأتقن
وأحكم، ونور ما أظلم، وأظهر ما استتر وأبهم، وأنجد في تعليم العلم واتهم، ثم
أورث علمه طائفته فبثوه في البلاد، وأفاضوا نوره على العباد، طورا باللين
وطورا بالاشتداد، وحالا بالسياسة وحالا بالجهاد، وآونة بالمواظبة الحسنه

وآونة بالسيوف الحِداد، إلى أن ألقى الناسُ يد الاستسلام، وأظهروا الإجابة
إلى دعامة الإسلام؛ فمن آمن منهم بهذا الأمر العظيم عن علم ويقين،
وإخلاص مستبين، فهو يتقيدُ بقيوده، ويقف عند حدوده، ويجري على معروفه
ومعهوده، ويبدو على ظواهره ما أكَّنه في سرائره، ويلوح على أساريه ما أسره
في ضميره، ومن حجبَه عن الإيمان به والإخلاص له حجابٌ، وحصل في
نفسه من الذي جاء به لبسٌ وارتباب، فهو باق في أحواله على المذهب الذميمة،
وعاكفٌ في أعماله على الرسم القويم، وطائفٌ بين أطلاله لا يبرح ولا يريم،
ويفتن بما كان ألفه ويهيم، ويزيح في تلك المسارح ما أمكنه ويسيم، فتراه
يتخطى الحدودَ ويتعداها، ويهمل الأوامر ولا يرهاها، ويغشى تلك المألوفات
ولا يخشاها، ويساعد نفسه الأمانة بالسوء ولا ينهاها، ويغفل مآلها ولا
يخاف عقباها. ومن كانت هذه حاله فهو ممن لم يؤمن بالله ولا رسوله ولا بما
جاءت به الرسل، ولا بالإمام المهدي الذي قامت عليه البراهينُ واتضحت في
أمره السبلُ، بل هو متمادٍ على كفره وتجسيمه، غير منتفع بتقويمه، ولا
مستبصر بتعليمه.

وبحكم ما ناطه الله تعالى بنا من أمور عبادته، ووسَّده إلينا من نصر دينه وإنجاده، وقلَّدنا إياه من الوقوف على حماية باطنه وظاهره في أغوار العالم وأنجاده، لم نزل نتعاهدُ أحوال الأنام، ونصل تصفُّحها على الليالي والأيام، ونقصدُ هذا المقصد بقوة واعتزام، ونأخذ في الكشف عنه بمواظبة والتزام، متبعين في العمل بالعلم أمرَ الإمام المعصوم الذي احتذى فيه حذو جده - عليه السلام - ، راغبين إليه تعالى في إعظام الأجر وإجزال المثوبة على القيام بهذا المقام.

لكن الناس مع مُواظبتهم بالتذكير، وملازمتهم بالتنبيه والتبصير لم يتركوا تلك الأفعال التي رسخت في الصدور، والملكات التي استقرت في القلوب، والحالات التي انطوت على إلفها الضلوع، وأبوا إلا ارتطاما في الغي وارتباكاً، وانكشافاً في طواعية الشهوات وانهماكاً، وخلعاً لعُذر النهي وانتهاكاً، وإجراءً في مهامه البطالة واستئنا، وتحليقاً في جو الغواية وطيراناً، وإغفالاً لما أحرق بهم من أمر الله تعالى ونسياناً.

فنهضنا إلى معاهدة التفقُّد بعزم قُرعت له الظَّنَّابِبُ، وجُري فيه إلى مد
القصرِ عن شأوه الجُردِ السراجيب، وجعلناه تعاها عاماً في البعد والقرب،
ونظراً شاملاً ينتظم حاشيتي الشرق والغرب، لتأخذ الجهاتُ حقها من
الضبط ، وتتنزَنَ الجنباتُ بميزان العدل والقسط، وتستقيم البريةُ على قانون
الانتظام والربط، فتكون العهود محفوظةً ، وسطوات الله تعالى بمُخالفي أمره
مُراقبةً ملحوظةً.

وأبتدئ بأول مباني الإسلام فاخذوا الناس بعلم التوحيد الذي هو أساسُ
الدين ومبناه، وروحه ومعناه، والقاعدة التي لا يثبتُ عمل دون تأصيلها،
والرابطة التي لا يُقبل دين دون تحصيلها؛ فلا سبب لمن لم يُمسك بسببه، وقد
بني وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به، وهو إثبات الواحد وبقي ما
سواه، بتقييداتٍ في الشريعة لا يكفي معها إطلاقُ اللفظ دون تحقيق معناه؛
وذلك أن يُعلم على وجه حدٍّ، ليكون عن علم لا عن ضده، وعن يقين لا عن
شك، وعن إخلاص لا عن شرك، وأن يقوله مع العمل ولا يتَّكل.

ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي (يقصد اللسان البربري) ويتكلمون

به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات

ويحفظوه ويَقْصُوه، ويُلازموا قراءته ويتعهدوه،

ويؤمرُ طلبة الحضر ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها، وتعاهدها

على سبيل التفهم والتبين والتتبع والتبصر.

ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها: (أرشدنا الله

وإياك) وحفظها وتفهمها، واشملوا في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار

والعبيد وكل من توجه عليه التكليف، إذ لا يصح لهم عمل ولا يُقبل منهم قول

دون معرفة التوحيد؛ فمن لم يعرف المُرسَل لم يصدق بالمُرسَل ولا بالرسالة،

ومن حصل على هذه الحالة فقد تعثّر في أذيال الضلالة. فإن لم يبادر إلى

التخلص منها، والانفصال بالعلم عنها فقد وجب عليه حكمُ الكتاب، ولا عنت

في إراقة دمِه لا محالة.

واخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتّب الموقوف على المؤمنين، والحكم

المثبت على من آمن بهذا الدين، والناهيّة عن الفحشاء والمنكر على ما ورد

في الكتاب المبين، ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة فهو مَمَحُوٌّ من ديوان المؤمنين، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف والقوانين، وتاركها ميت في عداد الأحياء، لحُشاشة تقضي عند القضاء أمدَ الإمهال والإملاء.

فخذوا من قبلكم بإقامة الصلاة على ما شرعت، وأدائها بحسب ما فُرضت، وخذوا العوام ومن في الديار بحفظ القرآن لتتم صلاتهم ويكمل عملهم، ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فُرض عليه منها فأجله للحين مُتاح، وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب.

وخذوا بإيتاء الزكاة وبالكشف عن مانعها وتشخيص مُمسِكِها أو النذر اليسير منها؛ فالزكاة حقُّ المال والجهاد واجب على من منع منها قَدْرَ العقال، فمن ثبت منعه للزكاة فهو لا حق بمن ثبت تركه للصلاة، فمن منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها، ومن منع عقالا فما فوقه كمن منع الشرع كله.

وامروا بالنظر في الربوب (نوع من الخمر) وتمييزها والهجوم على بائعيها ومدمني شربها ومستعمليها، فإراق مُسكرها، ويقطع منكرها، وليعتمد إلى من عمِلَ المُسكر الحرام عامدا، وشربه مُدْمنا عليه ومعاهدا، ولم ترعه الحدود،

ولم تقيدهِ القيودُ، ولم يعظه الاعتبارُ، ولم ينفعه الادكارُ، فيُمحى أثره،
ويحذفُ خبره، فالخمرُ أم الكبائرُ وجُماعُ الإثمِ وكاسفةُ شمسِ العقلِ،
والبلاغة على كل قبيح من الفعل، والفاتحة كل مُرتج من أبواب العصيان، وهي
رجس من أعمال الشيطان.

وامروا بالكشف عن التلصُّص والجِراية، والتولُّج في مكان الريب والغواية،
والاجتماع على سير الجاهلية من الملاهي على فنونها وأنواعها وضروبها
واختلاف آلاتها وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة والأفعال
المنافية للشريعة الصادرة على أهل (الزراعة) والضلالة من الرجال
المفسدين والغواة المضلين، ومن النساء المفسدات المتفننات في طرق الغوايات؛
فاكشفوا عن هذه الأصنافِ وأثيروهم عم مكانهم، ونقبوا عليهم في مظانهم،
فمن شُهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظُّنة باستصحابِ
حاله، وتماديه على الإحضار في محلِّ باطله ومُحاله، فيُحكَّم كتاب الله - جل
اسمه - فيه.

وليكشف عن الذين يَغرمون الناس ما ليس قبلَهُمْ ، ويأكلون بالباطل أموالهم، وعن أهل العناد والتقاؤس والإخلاد والتثبُّط الذين إذا دُعوا إلى الجهاد، ونودوا إلى الصلاح والرشاد صُمُّوا عن النداء، وتلوَّموا في إجابة الدعاء، وألقوا المعاذير المعربة عن العناد، والناطقة عن الضمائر الممتلئة بسوء الاعتقاد، وعن القبائل الباقية على سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد والخبل والانقياد إلى سلطان الجهل، والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر، وعن أهل النفاق والتدليس الناطقين بما لا يعلمون، والقائلين بما لا يفعلون. فإذا تعينوا على التحقيق فليمضِ عليهم حكم الله تعالى الذي أمر به فيهم.

وقد أنفذنا إليكم - وفقكم الله مقاصدكم، وعم بالتقوى معاهدكم - نسخة كتاب كريم، صدر عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم - رضي الله عنه - مشتمل على جوامع الكلم، ومُنطق على رواتع الحكم، لم يغادر في المعنى الذي تضمنه مُتردِّماً، ولم يوجد متأخراً عن الوقوف دون مقتضاه ولا مُتقدماً، ولم يوسع

متربصا في البدار ولا متلوما، فيه الملاذ والمعاد، وعليه الاعتماد والاستناد،
وإليه المرجع والمفزع.

وأنتم تقفون منه على حكم الله تعالى في القوم الذين ذكرهم ممن لا دين
له ولا أمانة ولا عهد ولا ميثاق، المدعين للحق بالأقوال، مع التماذي على
التضييع بالأفعال، وإظهار الاستماع والقبول في الظاهر، واتباع الجهل
والهوى في الباطن.

وتعملون ما جعل العمل عليه في أعداء الدين والعلم وما حكم به فيهم، ولا
معدل لنا عن حكم سر البيت المتلو في آيات الله والحكمة، المستخرج الحكم
من مشكاة النبوة ومرآة العظمة الذي انتظم به الأمر على سنن الهدى،
واستقام على نهج التقوى، فمن عانده أو خالفه أو ضاده أو كابره أو عصاه أو
ناواه أو جهله وأهمل أمره، فقد حاق به الردى، فالانقياد لما يقضى به واجب
والاستمسك بأمره حتم، والرجوع إليه في أمر الدين والدنيا فرض لأن
قضاءه وأمره هو قضاء ربه وأمره وإرادته وحكمه، وقد حكم - رضي الله عنه -
هذا الحكم فيمن هاجر إليه أول مرة وأتاه عند طمّو البحر واتصل به سلطان

الهرج، ونزع إليه عند الابتلاء والمحنة، واضطرام نار الفتنة، لما أنس منهم
النفاق وعلم فيهم فساد الباطن، وشهد منهم مكابدة الدين، والدخول فيها من
غير يقين، وفتح باب جهادهم ومحو آثارهم، وجعله أهم وأولى من جهاد
الكفرة المجسمين.

فكيف بمن أتى بأخرة عند استواء شمس الهدى على الآفاق، وإخفائها
خيالات أهل العتو والاستكبار والمُروء على النفاق، ممن جاء مخافة البيض
الرقاق، وأتى عند بلوغ النفس إلى التراق، وخاف من يوم عصيب يكشف فيه
عن ساق، فحينئذ أصحَب القيادة وأدَّعَن في المساق، وفيهم ممن ليس عقده
على الصحة والوثاق، ولا أفعاله مرضية المقصد ولا جارية على الوفاق،
فإمضاء هذا الحكم فيهم، بعد تحقق تلك الأوصاف عليهم أدخل في باب
الوجوب والاستحقاق.

وإن هذا الأمر العظيم، وإن كان أوسع الأيام عطفًا، وأنالهم رفقا ولطفًا، لا
يصل من أوجب الدين قطيعته، ولا يحفظ من رتب الحق إذالته، ولا يرخي في

الطَّوْلُ لِمَن اسْتَنَ فِي رَعْيِ حِمَى السُّنَنِ، وَلَا يَسْتَمِرُّ عَلَى الْمَهْلِ لِمَن زَاغَ عَنِ النُّهْجِ
وَالسُّنَنِ.

فَتَأْمَلُوا مَن اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الَّذِي هُوَ
هُدًى وَتَبْيَانٌ، وَنُورٌ وَبُرْهَانٌ، وَاهْتَدُوا بِهُدًى مِنَ الْهُدَايَةِ مَخْصُوصَةٍ، وَاعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ مِنَ الْعَصْمَةِ عَلَيْهِ مَنْقُولَةٌ مَنْصُوصَةٌ، فَلَا مَطْمَعٌ مِنَ الْهُدَايَةِ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا
وَجْهَ لِأَخْذِ الْعِلْمِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَنْهُ وَمِنْ لَدُنْهِ.

وَهَا نَحْنُ نَقْصِدُ قَصْدَهُ وَنَتَّحِدُهُ، وَنَجَاهِدُ عَلَى إِمْضَاءِ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ
مَعْنَاهُ، وَعَلَى هَذَا الْحُكْمِ مَضَى الْعَمَلُ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدْدٍ مِنْهَا بَعْدَ
أَنْ مُيزُوا بِمُثَوَاهِمُ، وَعُرفَ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّمَاهُمُ، وَتَبَيَّنَ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَا احْتَقَبَ،
وَشُهِدَ عَلَيْهِ بِمَا اقْتَرَفَ وَبِمَا ارْتَكَبَ، وَقَدْ فَضَحَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ جَمَاعَةً تَعِينُوا
بِصَحِيحِ الْأَعْلَامِ، فَأُخِذُوا بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ، وَجُرْعُوا (مَصْقَر) كَأْسِ الْحَمَامِ
بَشَبَى الذَّوَابِلِ وَجِدِ الْحُسَامِ، وَصُيِّرُوا عِبْرَةً لِأَوَّلِي الْاجْتِرَاءِ عَلَى ارْتِكَابِ
الْمَحَارِمِ وَالْإِقْدَامِ.

فامضوا - وفقكم الله - في أقطاركم على هذا النظام، واحكموا في هذه الأصناف بمثل هذه الأحكام، واحذوا حذو هذه الأفعال في طَحْر القذى عن طَرَف الإسلام؛ فمن تحقق عندكم بترك الصلاة، ومنع الزكاة، وإتيان المحرمات، والانهمال في المحظورات، من المفسدين والمفسدات، واستصحاب تلك الأحوال المقررات، أو واحدة من الأفعال المشروحة المبينات، من غير أخذٍ لهم بقول ذي هوى و غَرَض، ولا بشهادةٍ يَتَعَرَّض فيها من الظُّنَّة أدنى عرض، فإذا صح التبيين، وصدق التعيينُ فليؤخذوا بما احْتَقَبُوا، وليُسألوا بما كَسَبُوا، وليُقَابِلُوا عن فعالهم مقابلةً من لا تَصَرِّفُهُ عن الحق الصوارفُ، ولا تعطفُهُ عن امتثال أمر الله العواطفُ، بل يَمْضِي في إمضاء الحق بأشد العزائم، وليعمل فيه عملَ من لا يتقي في الله لومة لائم، إلى أن يستمرَّ أمرُ الله تعالى على إذلاله، ويبدو مُحْيَاً الحق سافراً عن جَمَاله، ويستقيمُ البشرُ على الجَدَد المَهْيَع، ولا يَعدِّلون عن سُبُل الاستقامة على الصراط السوي في المرعى والمشرع، والمقصد والمنزع، بعون الله تعالى.

ولتقدموا طلباً آمناً من قبلكم يُعلمون الناس قراءة توحيدهم وحفظه
وحفظ أم القرآن وما تيسر معها من السور، ويأخذوهم بمداومة ذلك
ومُعاهدته وحفظه، وليكونوا من الذين يُراقبون ويُحافظون، ولا يراعون في
حقوق الله تعالى ولا يُداهنون. واحذروا المداهنة وحذروها فإنها صارفة عن
الحق، مُزيفة عن نهج الصدق.

وليكن جميع ما تأتونه وتدرونه، وتقدمونه في هذا المقصد وتؤخرونه
جارياً على حكم الإمام المعصوم المهدي المعلوم - رضي الله عنه - مستنداً إليه،
ففعله هو الذي نقتدي به، ونستمسك بسببه، ونمضيه على وجهه، ونُجريه
على رسمه، فلا نجاه إلا اتباعه ولا أمانة إلا في الاستمسك بأقواله وأفعاله -
أعانكم الله على ما تقصدونه من ذلك وتتَحرونه، ووفقكم فيما تأتونه من ذلك
وتتولّونه، فذلك بيده -

وليكن في هذه الأصناف القوم الذين يكسرون الدعوة ولا ينقادون إلى ما
يجب عليهم من الحكم، والقبائل التي تُعادي عن نصح لهذا الأمر العظيم،

ووقف في استخراج حقوق الله، وأبان خبايا أهل التلبيس حتى أنهم ينصبون

لهم المكاييد، وليمض عليهم هذا الحكم فهم أعداء الله ورسوله.

وليكن هذا القصدُ عاما شاملا منتظما للحاضر والبادي، والنائي والداني،

من الذكور والإناث، والأحرار والعبيد، وسائر أصناف الناس لا يختص قوما

دون قوم، ولا جهة دون أخرى.

والله تعالى يوفقكم، ويتولى بمنه عونكم.

وكتب في الثالث من ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسائة.

هامش : الكلمات التي وضعت بين قوسين فيها شك من عندي.

الرسالة الثامنة عشر:

وهذا مقتطف قصير وصلنا من رسالته الاستعطافية مع بعض شعره:

«... تالله لو أحاطت بي خطيئة ، ولم تتفكّ نفسي عن الخيرات بطيئة،

حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لأدم من السجود، وقلت: إن الله لم يوح

إلى الفلك إلى نوح، وبريت لقرار ثمود نبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل

حبلا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين،

وقبضت قبضة من الطير من أثر الرسول فنبدتها ، وافترت على العذراء

البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظهرت الأحزاب

بالقصوى من العدو، وذممت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي،

وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب لإمام خليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن

شعبة، واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة، وغادرت الوجه من

الهامة خضيبا، وناولت من قرع سنّ الخمسين قضيبا، ثم أتيت حضرة

المعصوم لائذاً، وبقبر الإمام المهديّ عائداً. لقد آن لمقالتني أن تسمع، وأن تغفر
لي هذه الخطيئات أجمع مع أنني مقترف وبالذنب معترف:

الطويل

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوب هدها الخفقان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وكتب مع ابن له صغير: البسيط

عظفا علينا أمير المؤمنين، فقد ... بان العزاء لفرط البثّ والحزن

قد أغرقتنا ذنوب كلّها لجج ... وعطفة منكم أنجى من السفن

وصادفتنا سهام كلّها غرض ... لها ورحمتكم أوقى من الجنن

هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارته رحماكم من المحن

من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشا من الزمن

فالثوب يطهر بعد الغسل من درن ... والطّرف ينهض بعد الرّكض من

وسن

أنتم بذلتم حياة الخلق كلّهم ... من دون منّ عليهم لا ولا ثمن

ونحن من بعض من أحيت مكارمكم ... تلك الحياتين من نفس ومن بدن

وصبّية كفراخ الورق من صغر ... لم يألّفوا النّوح في فرع ولا فنن

قد أوجدتهم أياد منك سابغة ... والكلّ لولاك لم يوجد ولم يكن

ولما بلغت هذه القصيدة إلى عبد المؤمن وقع عليها: الآن وقد عصيت قبل،

وكنت من المفسدين.

ولأبي جعفر بن عطية يبكي نفسه حيث نكبه عبد المؤمن:

أنوح على نفسي أم انتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وات تمحي

وها أنا في ليل من السخط حائر ولا أهتدي حتى أرى للرضا صبحا

قال أبو جعفر بن عطية: دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد
أينعت ثماره، وتفتقت أزهاره، وتجاوبت على أغصانها أطياره، وتكامل من كل
جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان، فسلمت وجلست وجعلت
أنظر يمنا ويسرة متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي: يا أبا
جعفر أراك كثير النظر الى هذا الأبا جعفر المنظر الحسن هذا قلت نعم
فسكت عني فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر آخدي أسلحتهم
وجلس في مكان مطل وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكثيبة إثر
كثيبة لا تمر كثيبة إلا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح وفراهة خيل
وظهور قوة فلما رأى ذلك التفت إلي وقال يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن
لا ثمارك وأشجارك.

خرج الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحي مع وزيره أحمد بن عطية
متمتزا إلى بعض بساتين له بمراكش ، فمر في طريقه بشارع من شوارع
المدينة، فإذا بطاق في دار عليه شباك خشب قد قابله منه وجه جارية كأنه

الشمس الضاحية قد بادرت الطاق تنظر إليه، فنظر إليها عبد المومن فأعجبه
حسنها، وحلت من قلبه كل المحل، فقال ارتجالاً :

قدّت فؤادي من الشباك إذ نظرتُ

فقال ابن عطية:

حوراءُ ترنو إلى العشاق بالمقلِ

فقال عبد المومن:

كأنما لحظّها في قلب عاشقها

فقال ابن عطية:

سيفُ المؤيد عبدِ المؤمن بن علي.

فطرب عبد المؤمن واستحسن إجازة وزيره ، فخلع عليه وأمر له بمال
جزيل.

إشتهر في كتب الأدب والتاريخ ، قول الشاعر في مطلع قصيدة يمدح بها
هذا الملك:

ما هزَّ عِطْفِيهِ بين البيض والأسل مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن علي

وهذا من الشعر الذي تطرب ألفاظه أيما طرب ، ويسعى الشعراء إلى مثله
فلا يتفق لهم إلا لما !

